اعلام

في النحو العر

د. مهدي المخز

الموسوعة الصغيرة

٦٠

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول

مختلف العلوم والفنون والاداب

تصدرها دار الجاحظ للنشر

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم:

حضارة الرقم الطينية

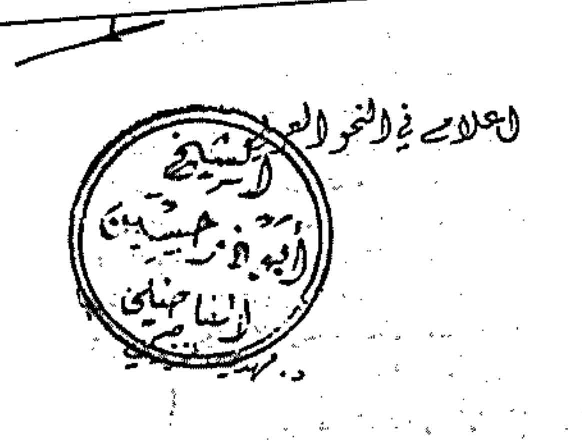
وسياسة التربية والتعليم

في العراق القديم

تأليف: كرستوفر لوكاس

ترجمة: يوسف عبدالمسيح ثروة

السعر ٥٠ فلسا دار الحرية للطباعة - بغداد



منشورات دار الجاحظ ـ وزارة الثقافة والاعلام

١٩٨٠ آذار

مقدمـة

جلس اعرابي يوما الى مجلس مـــن مجالس النحو يستمع الى اطراف من أحاديث هذا الدرس الذي جذبه الى هذا المجلس جذبا ، فسمع الشيخ يسال تلاميذه ، ويقول « كيف تقولون من توزّهم أزّا : يا فاعل افعل ؟ » ، أو قال : كيف تاتون بمثـال (اطمأننت) من (رميت وغزوت وبعت وقلت ؟) فاذ سكتوا ولم يجيبوا قال لهم الشيخ : يقال في المسالة الاولى : يا آزّ أزّ ، أو أوزز · ويقال في المسألة الثانية : « ارميّيت ، واغزوّوت ، وابيعّعت ، واقولّلت » ... عند ذلك نهض الاعرابي : وهـو يقول :

قد كان اخذهمْ في النحو يعجبني
حتى تعاطوا كـلام الزنج والروم
لما سمعت كـــلاما لســت افهمــه
كانه زَجَلُ الغـــربان والبــوم
تركتُ نحـــوهمْ والله يعصمني
مـن التقحّم في تلك الجـــرائيم

وتركهم وهو يقول في نفسه : « لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده » ·

كان الدرس النحوي قد وصل حقا الى ان صار ، كما سمع هذا الاعرابي وغيره، والى أن صار تمرينات غير واقعية ولا عملية ، أو صار نوعا من الرياضة العقلية البائسة ·

لم يكن الدرس كذلك أول الامر · لقد كان النحو علم الادب ، وكان دليل الدارس الى فهم النصوص ، والوقوف على اساليب العرب في نظم كلامهم ، وكان النحاة الاوائل رواة اللغة والشعر والادب ، وكانت مجالسهم تنتظم الدارسين على اختلاف موضوعاتهم ، غير أن اللغة وروايتها والنحو وتقعيده ، والقراءة وتخريجها كانت الاساس الذى اقام الدارسون عليه نشاطهم العلمي ، وكانت منطلقهم الى ميادين أخرى · وفي مجالس اللغة والنحو كان النحاة يتذاكرون الشعراء ، ويدلون بآرائهم في اشعارهم ، ويختلفون في تفضيل بعضهم على بعض ، وكان الشعراء يختلفون الى مجالسهم ، ويستمعون الى آرائهم ، فيما قالوا ، وفيما هم مقدمون على قوله ·

وكان المربد وعلماء البادية ، كما كانوا يسمّون ، وهم فصحاء الاعراب رفدا متواصلا للدرس النحوي في حلقاته المختلفة بما كانوا يذيعون فيه من لغات ، وما كانوا يتناشدون من اشعار ·

ولم يكتف الدارسون الاولون بهذا ، فقد كانوا يقضون الشهور والاعوام في مشافهة الاعراب في أعماق البادية ، وكان الخليل بن أحمد وصحبه ومعاصروه يفيدون من تنقلاتهم في هذه البوادى مشافهة وحفظا وتدوينا ·

وتمخضت هذه الحقبة الخصبة التى عاش فيها الخليل بن أحمد وصحبه وتلاميذه عن درس لغوي ونحوي حي ، يستمد حياته من حياة مصادره ، وشهدت هذه الحقبة أعلام الدارسين ، وكتب الدرس الاول في اللغة والنحو ، وفي مقدمتها كتاب العين ، والكتاب ، ومعاني الفرّاء ، ومقتضب المبرد ونوادر أبي زيد ، وفصيح ثعلب ومجالسه ، وكتاب الجيم وتهذيب الالفاظ ·

ولكن المصادر الحية التى كانت ترفد هذا الدرس ، وتغني مجالسه أخذت تنضب شيئا فشيئا حتى بعُد ما بينها وبين الدارسين ، فأخذوا يتشبثون بكل ما يمدهم بالقدرة على بسط قواعد هذا الدرس وأصوله ·

ولم يكد القرن الرابع يطل على الدارسين حتى صار الدرس يتوخى من مجالس الفلاسفة ، او النحاة المتفلسفين وكان الدارسون قد شهدوا عند مطلع القرن الرابع تيارا ثقافيا جديدا حفلت به مجالس

الدرس في بغداد ، بعد أن خبت الجذوات الاصيلة التى كانت تتقد وتتوهج في البصرة والكوفة ، وفي بغداد في عهدها الاول .

وكان ابو بكر بن السراج (٣١٦هـ) تلميذ المبرد في مقدمة الدارسين الذين أفادوا من الثقافة الجديدة من فلسفة وكلام ومنطق ، وكان له صحبة مع ابي نصر الفارابي الفيلسوف ، ولا ريب انهما كانا قد تبادلا فيما تبادلاه كثـــيرا من الآراء النحوية والمنطقية ، بل لقد تلمذ ابن السراج للفارابي فأخذ عنه المنطق ، وتلمذ الفارابي لابن السراج فأخذ عنه النحو . ولا ريب أن اتصال ابن السراج بالفارابي وغيره كان قد قوى الصلة بين الدرس النحوي والمنطق والفلسفة . لذلك يبدو للدارس أن تولي ابن السراج رئاسة النحو البصري بعد أبي اسحاق الزجّاج انما يمثل بدء عهد جديد للدرس عبّر عنه الدارســون بقولهم المشهور : « ما زال النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج بأصوله » .

وكان أعلام الدرس في هذا القرن قد تلمذوا لابن السراج ، وكان منهم أبو سعيد السيرافي ، وعلى ابن عيسى الرماني وأبو علي الفارسي الذين مزجوا النحو بالمنطق ، وحكّموا الاعتبارات العقلية في أصول النحو ومسائله .

واذا كانت بحوث هؤلاء الاعلام تفلت أحيانا مما

أريد تقييدها به من قوانين كلامية ، وقياسات عقلية فلأن الدرس النحوي عندهم ما فتيء خصبا ، وأن مصادره اللغوية لا تزال تنبض بالحياة ، ولكن الامر لم يستقم للدرس بعدهم ، فقد تولاه من بعـــدهم دارسون لم يتح لهم ما أتيح لهؤلاء ، فأساءوا فهم هذا الدرس ، وغلوا في تحكيم الاعتبارات المنطقية والاصولية ، وأسفّوا في تحكيم الفلسفة في النحـو اسفافا عاد النحو به حدودا منطقية ، وتعليـــلات فلسفية ، وتقديرات وتأويلات ...

وكان تأثرهم بالاصوليين والمتكلمين والمناطقة قد حملهم على تناول اللغة وكأنـها درس نظري ، ونظروا الى قوانينها وكأنها قوانين عقلية ، فتباعد ما بين قواعـــدهم وموضوع دراستهم ، وصاروا يتكاثرون بالتعمق في التعليل ويتبارون في الابعاد في التأويل ، حتى صار النحو عندهم مجموعة من الاصول النظرية الجافة الجامدة ، ويبالغون في تحكيم المنطق والاعتبارات الفلسفية في الدرس النحوي ، حتى كان الانباري أبو البركات وهو رأس المتأخرين يقول : « ان انكار القياس في النحو لا يتحقق ، لان النحو كله قياس » ، ويقول : « اذا بطل ان يكون النحو رواية ونقلا وجب أن يكون قياسا وعقلا » .

كان النحاة المتأخرون ينطلقون في دراسة النحو من فهم خطأ لطبيعته ، كانوا ينظرون الى قواعد اللغة

انها ثابتة ، لانهم كانوا يجهلون طبيعة اللغة ، ولا يدركون انها متغيرة أبدا ، متطورة أبدا ، وان التغير قوام حياتها ، وقد آن الاوان أن يبدأ بدراسة العربية كما تناولها الخليل بن أحمد وأصحابه وتلاميذه ، والآخذون بمنهجه من الرواد الاعلام الذين أقدم في هذا المختصر نفرا منهم ، وكما درست اول مرة وفق منهج لغوي سليم مبرأ من كل آثار المنهج العقلي الذى انتهجه مناطقة النحاة ·

ولو كان الدارسون اهتدوا الى المنهج الملائم لطبيعة الدرس ، وعرفوا حدود تخصصهم ، وقصروا نشاطهم الفكري على وصف الظواهـــر اللغوية ، وتسجيل ما هو صحيح ، وما ليس صحيحا ، وما الفه العرب في استعمالاتهم ومخاطباتهم ، وما لـم يالفوه اذن لكان للدرس النحوي في تصوري شان آخر ، ولكان فيه من المتعة والجدوى ما لم يتصوره الدارسون الضائعون في غمرة الشروح المكرورة ، والتعليقات الساذجة ، والتاويلات البعيدة المتكلفة ، لان النحو أبعد ما يكون عن جفاف المنطق ، وجمود احكامه ، بل لا أظن بين الدراسات الانسانية دراسة امتع ولا اكثر حيوية من النحو ، لانه ظاهرة انسانية تستمد حيويتها وقوتها من الانسان نفسه ·

ولكن الالوان الثقافية الجديدة التى شهدها القرن الرابع اغرت الدارسين ان يخضعوا النحـــو

لاعتباراتها ، ويمهدوا السبيل للاساليب المنطقية أن تتسلل الى موضوع دراستهم ، وتتحكم في اصولها ومسائلها ، فما لبث الدرس ان خبت فيه تلك الجذوة الوهاجة ، فلم يعد قادرا على أداء وظيفته ، فبرم به الدارسون ، وضاقوا بتعملاته ، وندت صرخاتهم هنا وهناك تدعو الى انقاذ هذا الدرس ، واعادة النظر في منهجه ، ورد الاعتبار اليه ، وتخليصه من غريب الشوائب ، ولكن العقلية السلفية التي اتسم بها النحاة كانت قد جمجمت بهذه الدعوات ، وطوقتها ، ولا تزال تحكم الطوق حولها ·

ولعل في تقديم هؤلاء الاعلام ، وبعث الحديث عن سيرهم ما يلفت انظار الدارسين اليوم الى عصر ازدهار الدرس ، ويسهم في الدعوة الى الموازنة بين اول النحو وآخره ، والى احياء النحو ، وتجديد ديباجته ، ورد الاعتبار اليه ، لان هؤلاء الاعلام هم الذين وضعوا قواعد هذا الدرس ، وهم الذين اعلوا صرحه ، وهم الذين احسنوا رعايته وتنشئته ··· وان الاخذ باساليبهم ، والاقتداء بهـــم باصطناع مناهجهم انما يعد احياء للدرس ، وانتصارا للدعوات الخيرة التي دعت الى تخليص النحـــو من قيوده الثقيلة ، والى تنقيته من الشوائب التى وسمته بها العصور المتأخرة ، عصور التخلف والانحطاط ، عصور الموسوعات والمختصرات ، عصور المنظومات والمتون والشروح والتعليقات ، وشروح الشروح ·

الخليل بن أحمد الفراهيدي

١٠٠ ـ ١٧٥هـ

في سنة مئة للهجرة ولد لرجل من الازد في قرية من قرى عمان وليد سمي بالخليل ، وكان اسم هذا الرجل أحمد ، وهو أول من سمي بهذا الاسم من المسلمين ، ودرج الخليل بن أحمد في تلك القرية ، ولكن اهله ما لبثوا أن هاجروا الى البصرة التي كانت في ذلك الوقت اكبر الامصار الاسلامية ، وابعدها صيتا في العلم ، واحفلها بالعلماء ، ونزل أهله في ظاهرة البصرة على عادة العرب الذين كانوا ينزلون مصرا من الامصار .

وكان الصبي يلعب مع أقرانه يوما في رحبة فمر بهم رجل على ظهر بغله ، فلفت هذا الرجل أنظار الصبية ، واذا بعيونهم تشخص اليه ، وتشد الى وجهه الذي لم يعجبهم منظره ، فقد كان دميما ، فغاظ الرجل حملقتهم في وجهه ، والتفافهم به ، فأراد أن يخيفهم ، فأنشدهم قوله :

نظروا اليك باعـــين محمرة
نظر التيوس الى مدى القصاب

ولابد انه كان يتبر ويضغط على قوله : « مدى القصاب » ليخيفهم ، ويحملهم على التفرق من حوله . ولكن الصبي تقدم اليه في جراة وتصميم ، فقال له : « نظرنا اليك أنك مليح كما ننظر الى القرد أنه مليح » فبهت الفرزدق ، ولم يرد عليه ، فقد خشي أن يتعقد الموقف فيبلغ خبره من كان يترصد له في المربد فلا يبيت ليلته حتى يصبح قصيدة هجاء تنشد على جموع الاعراب ، ثم تسير بها الركبان ، لذلك صرف وجه بغلته وانصرف .

وشب الصبي ، وشب معه ذكاؤه ، وثقوب فطنته وحدّة ذهنه ، ولم يجر ذكره بين الناس الى أن صار فتى وضع فيه والده وأسرته ثقتهم به ، ومعولهم عليه ليشارك أقرانه من فتيان الخـــوارج في الدفاع عن عقيدتهم ، والجهاد في سبيلها .

كانت البصرة اذ ذاك تضم مجتمعا جديدا معقدا ليس بالعربي الخالص ، ولا بالاجنبي الخالص ، وكان لهذا المجتمع طابع خاص يرجع الى اصول مختلفة عربية وعراقية قديمة ويونانية وفارسية ، وشاعت فيه ثقافات مختلفة ، ثقافة عربية تقوم على القرآن وما يتصل به من علوم الدين ، وعلى الشعر العربي ،

وما يتصل به من دراسات لغوية ونحوية وادبية ، وثقافة يونانية قوامها الكيميـاء والطب والفلسفة ، وثقافة شرقية تستمد اصولها من الهنود والفرس ، والاقوام العربية القديمة التي انحدرت الى العراق ، واتخذته موطنا لها من قديم ٠

وكان العرب الوافدون بعد الفتح وفي اثنائه قد استقروا في هذا المصر ، واحتـكوا بالعناصر الاجنبية ، وتبادلوا معهم فيما تبادلوه ثقافاتهم وتجاربهم فاعطوا الدين والقرآن واللغة والشعر ، واخذوا منهم ما ورثوه من ثقافة وحضارة حفظتها لهم هذه المدارس المبثوثة في هذا الوادى الخصيب فما شهدته بيئة البصـرة من مدارس في عهدها الاسلامي كان في الواقع امتدادا لما عرفه العراق من قبل في تاريخه الحضاري الطويل ٠

والجديد في الامر ان هذه الهجرة العربية الاسلامية الى ربوع هذا الوادى كانت قد وحدت هذه العناصر في الدين واللغة ، واختلطت الحضارات القديمة بحضارة العرب المسلمين ، فكان من اختلاط العناصر هذا المجتمع البصري الجديد ، ومن تلاقى الحضارات هذه الحضارة الجديدة التي يمكن ان نسميها بالحضارة العربية الاسلامية ٠

على مثل هذه الالوان الثقافية فتح الخليل عينيه وعقله ، وشهد البصرة في غمرة الفتنة التي

زعزعت قواعد الحـكم الاموي ، وشهدت البصرة حماسته في الذب عن عقيـدته ، واستجابته لداعى الجهاد ، وحبه للفروسية التي عرف بها الخوارج على اختلاف فرقهم وتباين آرائهم ٠

وكان الخليل مثلا ممتازا لفتيان الازد ، عرفه اقرانه ، واعجبوا به ، وخبره الشيوخ وتوسموا فيه البطولة وسداد الرأي ، وكان في فترات الهدوء الذى تنعم به البصرة أحيانا يهبط البصرة لا لتضمه ملاعب الاحداث ، ولا لتجتذبه خلايا اللهو ، ولكنه كـان يتجه الى المسجد الجامع حيث تزدحم المناكب لشهود حلقات الدرس يعقدها الوعاظ والقاصون والمحدثون والفقهاء ، واللغويون والنحويون ، ولشهودالمجتمعات العامة في المربد يستمع فيها الى مقارضة الشعراء ٠ ومهاجاتهم ، الى قصائدهم وأراجيزهم ، مما يشير النشاط والحيوية في النفوس الصابية الى سماع أحاديث الشعر ، وقصص البطولة ٠

وانه لكذلك اذ مر يوما بحلقة تزاحمت فيها المناكب ، واشرأبّت فيها العيون الى رجل وقور كان يقص ويعظ ويحدّث ، فقاده فضوله اليها ، واخذ يستمع الى ذلك المحدث الذي كان صوته يتدفـق بأحاديث لم يسمعها من قبل ، وعليه من جـلال الشيوخ ووقارهم ما اجتذبه اليه اجتذابا ، وظـل الشيخ يحدث ، والفتى يصغى ، واذا بالشيخ يقول :

« حدثونا عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق ، ولو ان اهل سماواته ، وأهل ارضه اشتركوا في دم مؤمن لادخلهم الله النار » .

فانتفض الفتى واحس بأن الشيخ كان كأنه يعنيه ، واخذ يستعيد ذكرياته ، وذكريات قومه ، وعيناه مشدودتان الى شفتيه ، واذا بالشيخ يقول : « لا يعلم احد خطأ معلمه حتى يجالس غيره » ، واخذت الافكار تصطرع في نفسه ، ولكنه رجع الى هدوئه ، ثم قال : « لقد صدق الرجل .. لا يعلم احد خطأ معلمه حتى يجالس غيره » .

وكان الخليل يروى هذا لاصحابه ، ويقول : « قدمت من عمان ورأيي رأي الصفرية ، فجلست الى أيوب ابن تميمة فسمعته يقول : اذا أردت ان تعلم علم استاذك فجالس غيره فظننت انه يعنيني فلزمته ، ونفعني الله به » .

ثم يعتزل قومه ، فتنقطع اخباره ، ويسكت التاريخ عنه ، ولم يجر ذكره على السنة الرواة والمؤرخين ولا تحدث عنه اصحابه الا أخبارا لا تعين الدارس على رسم صورة واضحة الخطوط لشخصيته الفذة ، فقد غفا التاريخ غفوة صحا بعدها ليشهد ذلك الشاب الذى قذفت به البادية ، وقد صار حديث الناس ومتجه الانظار ، ومقصد الدارسين .

واذا بذلك الاندفاع الجارف الى القتال يوم كان شابا قد حال الى اندفاع جارف ايضا ولكن الى طلب العلم ، واذا بذلك الايمان بمبدأ الصفرية قد تحول الى ايمان بالعلم ، وتعصب للعلماء ، وهو الذى كان يقول : « ان لم تكن هذه الطائفة ــ يعني أهل العلم ــ أولياء الله ، فليس له ولي » .. واذا به لا يدع ميدانا من ميادين العلم في عصره الا كان له مكان الصدر فيه ، لا يطاوله أحد ، ولا يلحق بغباره احد ، واذا بالخليل بن أحمد صورة نادرة من صور النبوغ في التاريخ ، ومثل نادر من أمثلة العبقرية التي يمكن للتاريخ العربي ان يقدمه للعالم برهانا على مشاركته في خدمة الحضارة .

وكان الخليل لا يدع فرصة الا افترصها في لقاء الاعراب ، والاخذ عنهم ، وكان له مع بعض هؤلاء صحبة وملازمة كأبى خيرة نهشل بن زيد ، وأبي الدقيش الغنوي ، وأبى نيد السدوسي ، وغيرهم .

واذا عرفنا أن الخليل كان يحج سنة ويغزو سنة ، فان سنوات الحج كانت تتيح له فرصا كبيرة للقاء الاعراب في البوادي ، ومشافهتهم ، والاصغاء لهم والاحاطة بما يستسيغون وما لا يستسيغون من أساليب وتراكيب ، ومفردات ولهجات .

ولما التقت في ذهنه الحافظ الواعي كل تلك الثقافات تدارسها وتمثلها ، وأعاد صوغها ، وأحكم

وكان اذا أخذ بالتأمل نسي نفسه ، وغفل عما يجرى حوله ، ولم تقع له الحادثة التي أودت بحياته الا لانصرافه عن نفسه وعما حوله ، فقد دخل المسجد يوما ، وقد استبد به تفكيره ، كما قالوا ، في طريقة يقرب بها نوعا من الحساب تمضى به الجارية الى البياع فلا يمكنه ظلمها ، ودخل المسجد ، وهو يعمل فكره في ذلك ، فصدمته سارية ، وهو غافل عنها بفكره ، وكـــان ذلك سنة خمس وسبعين ومئة للهجرة ٠

سيبويه

ابو بشر عمرو بن عثمان

توفى حوالي ١٨٠هـ

ركب الصبى مع أبيه وهو يستمع الى حديثه الذي لا يعرف كنهه ، ولكنه كان يحمله على التفكير في أيام باسمة سيكون محسدا من أجلها ، يحسده لداته وأقرانه الذين تركهم منذ صباح هذا اليـــوم يلهون ويلعبـــون في تلك الرحبة التي يتجمع فيها صبيان الحى ٠

كان ابوه يحدثه عن بلد غريب واقوام غرباء ، يختلفون الى المجالس ، ويدلفون الى المسجد الجامع ، ليستمعوا الى القصاص والمحدثين والفقهاء واللغويين، وليكونوا بعد زمان يطول أو يقصر من ذوى الشأن العظيم ، والصبي غارق في أحلامه المبهمة ٠

وصل ركاب القوم الى ثغر العراق ، وتفرقوا في غمار هذا المجتمع الصاخب الجديد ، وشهد مسجد البصرة أهوازيا يمسك بيد صبى ، وهو يتردد بين

تلك الحلقات العلمية الحاشدة الى أن ينتهي به المطاف الى حلقة من تلك الحلقات ، فابطأ في مشيه ليصغي الى ما يتحدث به هذا الشيخ الذى تصدر الحلقة فاذا به يحدث الناس ويعظهم ، ويقص عليهم قصص الرسول ، ويحذرهم وينذرهم ، ويرغبهم ويمنيهم ، فالتفت الى ابنه الذى ما زال صامتا يتفحص وجه ابيه ، وقطع صمته باستئذانه هذا المتحدث في الجلوس ، فجلسا مع الجالسين ، الى أن انفض المجلس ، واذا بابيه يدنو من هذا الشيخ ليوصيه بابنه خيرا ، ويتمنى له على يديه نشأة علمية صالحة •

ومرت الايام وسيبويه يختلف الى مجلس حماد بن سلمة ، ويلازمه ، ولكنه كان يتردد بين آن وآخر على حلقات الدرس في مسجد البصرة ، وكان ينهل من هنا وهناك ، فانطوى ذهنه على ثقافة عامة جرأته أن يعترض يوما على أستاذه حين كان يملي عليه بعض الاحاديث ، فقد كان حماد يملي عليه قوله (ص) : « ليس احد من أصحابي الا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء » ، فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء، ظانا أنه اسم (ليس) ، فقال حماد : « لحنت يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، وانما (ليس) هينا استثناء » •

وجاء سيبويه الى حماد يوما ، فقال له :

« أحدثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رعف (بضم العين) في الصلاة ؟ فقال حماد : اخطات • انما هو رعف (بفتح العين) » •

وأثرت تخطئة حماد اياه في نفسه كثيرا ، فأسر في نفسه شيئا لم ينكشف للناس الا بعد لأي ، يوم أصبح علما من أعلام الثقافة العربية الاسلامية ، أسر في نفسه أن يطلب علما لا يستطيع حماد ولا غيره أن يلحنه بعد ذلك اليوم • فاتصل باساتيذ النحو واللغة في البصرة ، وهم اذ ذاك كثيرون ، ولم يضم المسجد الجامع الى أروقته من وفرة في العلماء ، وخصب في العلم كما ضم اليها في تلك الفترة التى عاصرها سيبويه •

وأول من أخذ عنه النحو أخذا مستوعبا هو (يونس بن حبيب) الذى يعد من القلائل الذين كان لهم مجهود واضح في نقد الشعر ودراسة اللغة والنحو •

ولكن مجلس الخليل بن أحمد الذى كان طلاب العلم يزحم بعضهم بعضا فيه ، والشهرة العلمية الضخمة التى احاطت بشخص الخليل ، والتى كانت تهز النفوس هزا كان قد اجتذبه اليه • كما اجتذب غيره من الدارسين ، فأخذ يختلف الى مجلسه ، ويطيل الاستماع اليه ، وكان سيبويه على قدر كبير

من الذكاء الى حيث استلفت الخليل اليه ، ورأى الخليل فيه تلميذا جديـــرا بالعناية ، فأدناه من مجلسه ، وأخذ يملي عليه ، ويوجهه ، ويفتح أمامه آفاقا جديدة من العالم لم يعهدها في غير هذا المجلس ، فلازمه ، وانعقدت أواصر المودة والاحترام بين الشيخ وتلميذه ، ولم يفارق مجلسه ما دام الخليل مستعدا للاملاء والبحث ، وكبر الشاب في عين استاذه ، فكان اذا أقبل على مجلسه كعادته قال له الخليل « مرحبا بزائر لا يمل » ولم يكن يقولها لغيره ، ولازمه قرابة عشر سنوات استطاع خلالها أن يجمع من أقوال أستاذه وآرائه وتعليقاته وتفسيراته وشروحه في اصول النحو ومسائله ما كان يملأ الف ورقة ·

هذا الاثر الخالد الذي اقترن اسم سيبويه به كان في الواقع أثرا من آثار الخليل ، وأحد الاعمال المجيدة التي قام بها ، وكان لسيبويه الفضل في نقل آراء الخليل وحفظها وتصنيفها وشرح ما انبهم منها ، وفي جمع ما تيسر له من آراء أخرى لشيوخ آخرين كان سيبويه قد تلمذ لهم وأخذ عنهم ·

ولست في هذا بمنتقص عمل سيبويه ، ولا بمتهم له ، فسيبويه أمين كل الامانة في نقله وتأديته عن الخليل ، ولسيبويه عمل واضح في هذا الاثر ، فقد جمع الاقوال ، وبسط الآراء ، ووازن بينها · وحمل مثل هذا العمل الضخم وتأديته كأحسن ما

تكون التأدية ليس سهلا ولا يسيرا ، وقد تلمذ للخليل كثيرون ، ولكنهم لم يحملوا الامانة كما حملها سيبويه ، ولم يفهموا مقاصدها وأغراضها كما فهمها سيبويه ·

وقد قيل ليونس بن حبيب بعد وفاة سيبويه : « ان سيبويه ألف كتابا في الف ورقة من علم الخليل · قال يونس : ومتى سمع سيبويه كل هذا عن الخليل ؟ جيئوني بكتابه ، فلما نظر فيه رأى كل ما حكى · فقال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل في جميع ما حكاه كما صدق فيما حكاه عني » ·

ولا شك أن وفاة الخليل كانت قد أثرت في نفس هذا التلميذ الفتى ، وأفقدته حاميا يذب عنه عاديات الزمان ، ومنهلا من العلم لا ينضب رواؤه ، وظل بعد قرابة اربعة أعوام يذب عن نفسه حسد الحاسدين ، ويدفع عنها كيد الكائدين ، وصمد في كفاحه وهو يحمل في ذهنه هذه الذكريات الجليلة التي تركتها في نفسه تلمذته لاستاذه العظيم ، وبين يديه هذه الكراريس التي حفظت كثيرا من مجالس استاذه · ومن الوفاء لاستاذه ان يرد له بعض الفضل فآلى على نفسه أن يتم ما بدأه في حياة أستاذه ، ويلم ما تناثر من محاضراته ، وأن يحمل الامانة على خير ما تحمل الامانات ، وأن يصون هذا التراث على

خير ما يصان الارث ، وتم له ما أراد ، وتمخض هذا الجهد عن اول كتاب في أدب اللغة ظل مورد الدارسين في الاقطار العربية المسلمة عـلى تعاقـب الاجيـال وكافاته الايام فقرنت اسمه بهذا الاثر الحي ، فخلد بخلـوده .

لم يجالد سيبويه الايام بجاه ورثه عن أسرته ، فقد كان من عامة الناس ، ومن الموالى الذين سفلوا في نظر العلية حتى عن طبقات العامـة ، ولم يقـاوم الصعاب بثروة ، فلم يعرف عنه يسر الحال ، فقد نشأ في أسرة متواضعة متوسطة الحال أو دون ذلك ، بعثت به حين توسمت فيه الذكاء الى البصرة لينشأ هناك نشأة أهل العلم ، ويصيب بطلب العلم جاها ومالا ، وقد عاش عيشة الزهاد من طلبة العلـم ، ولقنه الخليل الزهد والاعراض عن الدنيا فيما لقنه من علم ، وقد كان الخليل يضرب أروع الامثلة في العفة والزهد ، ولابدع أن يحتذيه هذا التلميذ الذي اعجب باستاذه كل الاعجاب ، ولقى من اقبـــال استاذه وحدبه عليه وتعهده بالعلم ما زهده في كل ما كان اقرانه يخوضون فيه ، وهو الذى سمع بأذنيه تلك العروض المغرية التي تقدم بها والي الاهـواز سليمان بن علي الى الخليل ، ليقوم بتاديب أولاده ، ورأى بعينيه أستاذه وهو يخرج من تحت حصيرته كسر الخبز اليابسة قائلا لرسول الامير : « ما دام

هذا عندى فلا حاجة بى الى سليمان ، أبلغه عنى ذلك » ، ولا شك أن هذا الموقف الرائع كان قد هز نفس الفتى وملأ قلبه روعة ، ولقنه درسا في الخلق القويم وفي الاعتزاز بالعلم والعلماء ... لم يجالد سيبويه بهذا أو ذاك ، ولكنه كان يجالد بخلقه وعلمه وأمانته ، ومات الخليل ولا يملك سيبويه الا هذا الارث العظيم الذى خلفه له أستاذه ، أما ما تتطلبه الحياة من مال فلا أظنه كان يستطيع الوفاء به ، وسيبويه بعد فتى تجول الآمال في ذهنه وتصطرع الاماني في نفسه ، فلم يستطع أخيرا أن يقاوم هذه المغريات ، ولا هذه الآمال العراض التى تموج في نفوس الشبان أمثاله ، ولا هذه الحاجات التى تدفع بهم الى تحقيق رغباتهم في الشهرة والثراء .

أحس بهذا كله ، ورأى زملاءه الذين هم أسن منه ، وتلاميذه الذين هم أعلم منه يتهامسون بما يلقاه المعلم ببغداد من ثروة وجاه ، وسمع عمن شد رحاله اليها منهم أحاديث لم يقو على صد مغرياتها ، وتردد طويلا ، ولكنه كان يحس بالحرمان وحاجة الاهل والاخوة احساسا قويا ، فأعلن عن اعتزامه السفر الى بغداد ، ووصل النبأ الى البغداديين الذين سمعوا عنه كثيرا فاهتموا بهـــذه الزيارة ، والى البصريين الذين سبقوه فتباشروا بقدومه ، ولكن شيخا واحدا كان يحسب لهذه الزورة حسابا دقيقا ، كان يحس كانه نازلة تنزل به فتبدد مركزه بين

الحاكمين ، وتقوض هذا المجد العريض الذى اقتعده في مدينة السلام • وكان هذا الفتى القادم ، عرفه يوم ذهب الى البصرة ، واختلف الى مجلس الخليل ، وعرف تفوقه على تلاميذ الخليل ، واعجاب الخليل به ، وكان على حق في خوفه وقلقه ، لانه كان يعلم أن سيبويه اذا استقر به المقام في بغداد أقصاه عن مكانه ، واستاثر باعجاب الحاكمين دونه ، وكان يعلم أنه لا قبل له بسيبويه ولا بمناظرته ، فهو عالم أهل البصرة وحامل علم الخليل ، فلابد من التحيل للتخلص منه ، « فاتى جعفر بن يحيى بن برمك والفضل بن يحيى بن برمك وقـــال : أنا وليكما وصاحبكما ، وهذا الرجل انما قدم ليذهب محلي • قالا : فاحتل لنفسك فانا سنجمع بينكما » •

وشهدت بغداد مجلسا حاشـــدا للمناظرة ، عرض فيه قول العرب : « قد كنت أحسب أن العرب اشد لسعة من الزنبور فاذا الزنبور هي . أو فاذا الزنبور اياها بعينها » • أصر سيبويه على الاول ، وأجاز الكسائي القولين جميعا ، وشهد الحاضرون للكسائي . وخطئوا سيبويه واكثرهم من اصحاب الكسائي الذين اشترى ذممهم بالمال ، فانفض المجلس عن مؤامرة شنعاء كان فيها خيبة مرة لهذا الشباب القوى الطامح ، ولم يكن سيبويه بالمخطىء فهذا هو ما سمعه من أستاذه وهو الاكثر في لسان العرب عنده •

ورجع سيبويه خائبا ، فلم يطق الاقامة في البصرة التي كانت تتطلع الى أخبار الفوز وغادر البصرة الى الاهواز ، وتوفى هناك بعد مدة قصيرة ، وبعد اصابته بداء عضال ، ودفن الاهوازيون معه الامانة والعلم الجم •

وأسدل الستار على هذه المؤامرة التي كـان الكسائي بطلها الاول ، والتي كان الدافع الى ارتكابها حرص هذا الرجل على صلته بالسلطان ، ولكن التاريخ لم يصبر على ضياع الحق كما شاء الكسائي فرواها للاجيال ، وكتب لسيبويه هذا النصر العلمي الذي جنت الدهور ثمراته ، فحالت هزيمة سيبويه الى نصر خالد ، كما تحول المظالم في ثنايا التاريخ الى صراخ هائل تتداعى بدويه أركان الظالمين •

يحيى بن زياد الفرّاء

يحدثنا ثمامة بن اشرس احد ائمـــة المعتزلة – وكان له اتصال بالمامون – انه دخل دار الخلافة يوما ، فراى في احد ابهاء الدار جماعة ينتظرون الاذن بالدخول الى مجلس المامون ، ووقع نظره على رجل كان يجتذب اليه الانظار ، وجمد نظره عليه ، وكانما شد طرفه اليه شدا ، واحس برغبة في مجالسته ، واخذ يفاتشه عن اللغة « فوجده بحرا ، وعن النحو فشاهده نسيج وحده ، وعن الفقه فوجده فقيها ، عارفا باختلاف القوم ، وفي النجوم ماهرا ، وبالطب خبيرا ، وبايام العرب واشعارها حاذقا ، فقال له : من تكون ؟ وما اظنك الا الفراء • فقال : انا هو ••• فدخل ثمامة على المامون فاعلمه ، فامر باحضاره لوقته ، فكان سبب اتصاله به » •

كان مولد يحيى في الكوفة سنة اربع واربعين ومائة ، وكانت الكوفة اذ ذاك مقصد الطلبة ، وكان مسجدها الجامع غاصا بالدارسين ، وكانت في مجمل القول مدرسة عربية اسلامية ، لا يزال اثرها واضح المعالم قوى السمات في التشريع الاسلامي ، وقد شهد

منبرها مرتقى علي بن أبي طالب ، يذيع في الناس تعاليمه ، ويضع بينهم أسس العدل الاجتماعي ، وقواعد الحكم الصـــالح ، ويرسم الخطوط الاولى للاجتهاد ، واعمال الراى في التشريع الاسلامي ، ثم هي وجه العراق ، ومنزل خيار الصحابة ، وموطن الادب والرواية ، والقراءة والحديث •

في هذه البيئة الجادة نشأ صاحبنا غامر الذكر، لا يعرف التاريخ عن نشأته شيئا ، لانه لم يكن من علية القوم ، ولم ينحدر من الاسر العريقة التي يحسب الكتاب والمؤرخـون لها حسابا ، ويملؤون الصفحات بكل تافه من الوان حياته المترفة ، فقد كان أبوه مولى لقبيلة عربية كبيرة ، وكان ينتسب اليها بالولاء كثير من الصحابة ، وغير الصحابة ، وهي قبيلة بني منقر (بكسر الميم وسكون النون وفتح القاف) ، التي منها خالد بن صفوان ، وشبيب بن شبة اللذين عرفا بالخطابة وبلاغة القول •

ونشا كما ينشأ اولاد الفقراء ، ينتهب حقه في الحياة انتهابا ، ويفرض شخصه على الزمن فرضا • ولم يفتح عينيه على يحيى بن زياد الا وهو شاب عرفه زملاؤه بنفاذ الذهن ، ودقة الحس ، وقدر له استاذه أبو جعفر الرواسي مستقبلا علميا جليلا •

كان رقيق الحال ، وكان أهله من ذوى العسرة، وكان ذلك مصدر الالم يحز في نفسه ، ومبعث الحسرة

تضطرم في صدره ، وقد لاح له من حث استاذه اياه على الذهاب الى بغداد بارق من الامل في تحقيق ما يصبو اليه .

وشد الرحال الى بغداد في رفقة طيبة ، والحماس يحفزه على الظهور فيها ، واندفاع الشباب يحدوه الى مقارعة كوفى آخر زامله في التلمذة لابى جعفر الرواسي هو الكسائي وكان قد سبقه الى بغداد ، وانفتح له باب القصر ، وابتسمت له الحياة ، فالتقى به وقد كثر الناس عليه ، فعمل له مسائل فيها محال ، وفيها صواب « فاقبل يقـــول ، فيصيب ويغلط ، لما شغله من الناس ، فلما صار الى منزله كتب اليه رقعة فأعاد اليه فيها ما سأله ، فقال فيها بالصواب كلها ، وقال : كنت مشغولا بما كان عندى ، وقد ظننت أنك أردت ببعض مسائلك أن تتغفلنى ، ولا ينبغى لمثلك أن يفعل معى ذلك . قال الفراء : « فبلغ منى هذا القول كل مبلغ ، وكأني فجرت به منه بحرا » ، فاعجب الفراء به ولازمه ، وتلمذ له ، واحتذاه في أسلوبه ومنهج دراسته ، ودافع عن هذا المنهج ، وكان قواما عليه ، حتى ليخيل الى الدارس ان مدرسة الكوفة اللغوية النحوية انما تنتسب اليه ، وهو رئيسها حقا ، أو الرئيس الاول الذي كان كوفياً في جميع منازعه .

وكان الفراء في مقدمة الذين حضروا المناظرة

التاريخية بين أستاذه على بن حمزة الكسائي وخصمه البصرى القوى سيبويه الذى كان كتابه قرآن النحاة من أهل البصرة ، وهو الذي مهد لاستاذه سبيل النصر بمساءلة سيبويه قبل أن يحضر الكسائي ، وتخطئته ، لان سيبويه كان يجيب عنها من وجهة النظر البصرية ، وكان الفراء يخطئه من وجهة النظر الكوفية التي ثبت هو قواعدها .

وقبض الكسائي ، والتف الدارسون في بغداد حول الفراء ، وتهيأت الظـــروف ليقف الناس على عبقرية نادرة لم تشهد البيئات الدراسية مثلها بعد عبقرية الخليل بن أحمد الفراهيدى .

ولم ينسه المكان الذى وصل اليه ، والحظوة التي كان محسدا من أجلها ان في الكوفة من رهطه الادنين من لا يزال يقاسي من شظف العيش وضيق الرزق ما كان يقاسيه هو يوم كان بينهم ، فكـــان « يجمع طول السنة ، فاذا كان في آخرها خرج الى الكوفة فاقام بها اربعين يوما في أهله يفرق عليهم ما يجمعه ، ويبرهم » .

وكان — اذا استقر في بغداد — قد أعد نفسه اعدادا يسر له الافادة مما كان يدور في البيئات الدراسية من ثقافات أصيلة أو رافـدة ، وبغـداد يومئذ كانت تجتذب ما حولها من ثقافات ومثقفين ،

وكان المصران الكبيران يرفدانها بكل ما كانت تتطلبه الحياة فيها من أنواع المعارف وألوان الفنون ·

كانت مجالس بغداد العلمية حاشدة بالمتكلمين والفقهاء والنحاة والشعراء ، يأتي بهم ضيق احوالهم، ويزين لهم الهجرة اليها ما كانوا يأملون فيها من زلفى وجاه وثراء ، وقد اتصل صاحبنا بأولئك وهؤلاء ، واخذ عن اولئك وهؤلاء ، حتى هيأ نفسه تهيئة اجملها ثمامة في مقالته ·

وكان الفراء كما قال ثمامة ، لم يسرف في وصفه ، ولم يغل في الاشادة به ، ولو لم يكن للفراء من آثار الا كتابه « معاني القرآن » لرفعه الى درجة الخالدين ، ولكن له كتبا كثيرة اختصرت فيها ثقافة العصر من لغة ونحو وتفسير ورواية · منها : كتاب الحدود الذي فصل ابن النديم القول فيه ، وتلمذ له فيه ابو الطيب المتنبي ، وتأثر به ، ونحا في شعره منحى الكوفيين ، حتى وجد خصومه من ذلك ثغرة اندفعوا منها الى تخطئته وتلحينه ، وما هو باللحانة ، ولكنه كوفي المنزع والهوى ·

وبالرغم من ان الفراء كان معنيا بالدراسات الكلامية ، لم يسمح للمنهج الكلامي أن يتدخل في دراسته اللغوية النحوية ، كأنه كان يرى ان طبيعة هذه الدراسة لا تقاس بمقاييس عقلية ، كما تقاس

قضايا المنطق والفلسفة الكلامية ، وكان يلجأ الى الرواية كلما أراد الى تقعيد قاعدة أو تأصيل أصل ، ولذلك كان القرآن في مقدمة مصادره اللغوية ، وهو الذي كان يرد على البصريين ومن ذهب مذهبهم في توجيه آية أو رد قراءة أو تخطئة قارىء بقوله : « الاجتماع من قراءة القراء أحب الي » أو بقوله : « ولست أشتهي أن أخالف الكتاب » ·

يخيل الي أن عنايته بالقرآن واعتداده بكلام العرب كان قد منح دراسته قوة وحيوية ، وجعل الآراء الكوفية ألصق بواقع اللغة ، وكان طبيعيا أن تنفرد الدراسة الكوفية بأحكام يستطرفها المنهج اللغوي ، وان عدها البصريون لحنا وفسادا ·

ومن آرائه الجديدة التي ثارت لها ثائرة النحو البصري المتفلسف : ذهابه الى أن (خالد) في قولنا : قام وقعد خالد ، فاعل للفعلين جميعا · وهذا ما لا يستطيع البصريون تصوره ، لان الاخذ به يعني حذف باب كان المنهج البصري قد أفرغ فيه كل ما لديه من ضروب التلاعب بالاساليب العقلية وهو باب التنازع ، فالفاعل عند البصريين معمول للفعل ، ومحال أن يجتمع عاملا على معمول واحد ، لان العامل عندهم بمنزلة العلة ، ومحال أن تجتمع علتان على معلول واحد ، فخالد انما يكون فاعلا لاحدهما اما الثاني فيضمر فيه فاعله ، ولكن الفراء لا يسرى

اضمارا ، ولا يمنع ان يكون خالد فاعلا للفعلين جميعا ·

والفراء هو صاحب التفسير المعروف لرفع الفعل المضارع ، الذي يجري على السنة المعربين منذ اكثر من الف عام : يرفع الفعل المضارع لتجرده عن الناصب والجازم ·

وله من الآراء الطريفة ما لا تحتمله هذه الصفحات المحدودة للمقال ، وما لو أخذ به الدارسون لفتح لهم آفاقا جديدة ، يطلون منها على دراسة جديدة تنبض بالقوة والحيوية ·

وكتابه « معاني القرآن » نموذج حي يتطلبه المنهج الحديث في تفسير القرآن ، بعيد عن الغيبيات التي اتخمت بها بطون الكتب كتب التفسير ، وعن تحميل النصوص القرآنية اكثر مما تحتمل من تفسيرات دخيلة لا يحتملها نص مفروض فيه أن يكون نصا أدبيا يهدف الى أغراض دينية نفسية ·

ولعل دار الكتب المصرية تسرع في اخراجه ، ليقف الناس على سبب هذا الجحود الذي مني به هذا العمل الجليل ، والهجوم الظالم الذي اعده رجال المدرسة البصرية لاخفاء هذه الشعلة المتوهجة ، وللتقليل من شأن هذه الذخيرة العلمية ، وللغض من قيمة هذا النشاط الدائب لخدمة اللغة والادب ،

مدفوعين في ذلك كله بدافع العصبيات البرج ، والحرص على التقرب من السلطان ·

وفي سنة سبع ومائتين للهجرة انطفأت هذه الشعلة ، وسكن هذا الجد الدائب في خدمة اللغة ، ومات أبو زكرياء وفي نفسه شيء من (حتى) ·

الاخفش

أبو الحسن سعيد بن مسعدة

توفى بين ٢١٥ ، ٢٢١هـ

جلس الخليل وحوله اصحابه ونقلة علمه ، يسألونه فيجيب ، أو يملي عليهم فيكتبون ، ومن وراء هؤلاء حشد كبير تعودوا الجلوس الى مجلس الخليل ، ليسمعوا ويفيدوا مما يسمعون • وبينما هم كذلك اذ رأوا شابا يتخطى هذا الجمع الحاشد ، ويستلفت اليه العيون التى كانت مشدودة الى حيث يجلس الخليل ، فيتهلل وجه الخليل وتنبسط اساريره ، ويقول : مرحبا بزائر لا يملّ ، ويتخذ سيبويه مكانا لا يبعد عن مكان الخليل ، ويسأله عن مشكلات علمية كانت قد اعترضته ، فيجيبه ، ثم يترك مجلس الخليل ، ويبتعد عن المسجد الجامع فاذا بأبى الحسن يتصدى له ، ويعترض طريقه ويستفهم عما دار بينه وبين الخليل من كلام لم يفهمه ، فيعيد سيبويه عليه جواب الخليل ، فلم

يفهمه ، ولم يقع له ، فيقول لسيبويه : « لا تتوهم أني اسالك اعناتا فاني لم افهمها ولم تقع لي ، فقال: ويلك ومتى توهمت أنني أتوهم انك تعنتني » وتركه ومضى •

لم يكن للاخفش في حياة الليل ولا في حياة سيبويه شأن يضعه في صف التلاميذ الذين فازوا بالتلمذة للخليل ، ولم يكن من رؤساء الحلقات الذين تصدروها للدرس ، ولكن القدر أراد أن يعرف الاخفش ، ويذيع صيته ، ويردد اسمه ، ويحمل ثعلبا على تفضيله ووصفه « بانه كان أوسع الناس علما » • وكان مما فعله القدر أن هيأ له الذهاب الى بغداد والاقامة فيها ، وفي بغداد اذ ذاك وفي مجالسها الخاصة من موارد الرزق ، ومن أسباب الشهرة ما يحفز أمثال الاخفش الى الارتحال اليها والاقامة فيها•

ولم يذهب ابو الحسن الى بغداد ليلازم مجلس الكسائي الا بعد رجوع سيبويه منها مغاضبا ، وقد وصل سيبويه الى البصـــرة ، وقص على اصحابه قصته ، وما دبّر له الكسائي من مكيدة ، واخبرهم باعتزامه الهجرة الى الاهواز ، وهاجر الى حيث وافته المنية •

وانتهى كتاب سيبويه الى الاخفش ، وبقى محتفظا به ، ولكن أخباره تناهت الى اصحاب سيبويه

ومكبريه ، فخافوا أن يدعيه لنفسه ، ولم يكن يعرف بالورع ، أو يؤتمن على أمانة ، فتحيّل أبو عثمان المازني وأبو عمر الجرمي ، وهما من انبه اصحاب سيبويه ، واشدهم اعجابا به ، وطلبا اليه أن يقرئهما كتاب سيبويه ، وبذلا له المـــال ، فشغله أمـر تلمذتهما له . وما لوحا به من أجر عن الاحتفاظ بالكتاب لنفسه ، واقراهما اياه فكتباه في نسختين ، وافلت هذا الكنز من يديه ، فلم يعد المالك الوحيد لـه .

واعتزم ابو الحسن السفر الى بغداد متظاهرا بعزمه على الانتقـــام لسيبويه ، ورد الاعتبار الى البصرة ، وورد مجلس الكسائي ، فصلى خلفه الغداة، ولما انتهى الكسائي من صلاته انتقل الى أصحابه ، وجلس أصحابه حوله ، وكان من بينهم الفراء ، فسلم عليه الاخفش ، وساله ـ كما كان يزعم ـ عن مائة مسألة ، وخطّأه في اجاباته كلها ، فعرف أنه سعيد بن مسعدة ، وادناه من مجلسه ، وعهد اليه بتأديب أولاده ، وظهـــر للناس أن الاخفش ليس بالرجل الذي يخشى الكسائي أن يزحمه ، ولو كان ذا خطر لكاد له كما كاد لسيبويه .

فلم يكن الاخفش اذن شيئا بالرغم من ادعاءاته العريضة التى كان يغلو فيها فيفضـــل نفسه على سيبويه في فهم كتاب سيبويه ، ولم يكن من النابهين

بالرغم من افتيات بعض الكوفيين في تفضيله على سائر الناس ، ولم يكن من تلاميذ الخليل الذين فهموا مقاصد الخليل بالرغم من انه حمل للناس بعض اعمال الخليل .

لقد ذهب الخليل ، ولم يترك كتابا خطه بيده، ولكنه ترك لتلاميذه وللاجيال علما جما ، وسجل له التاريخ الاسلامى من ضروب الابداع ما ينبغى ان تنحنى القرون اجلالا له ولنبوغه الفذ الذى توج تاريخنـا باعمال يكفي بعضـها ليسـجل اسـمه في الخالدين .

ترك كل هذا لتلاميذه ، فحمل عنه سيبويه اعماله الفريدة في لغة العرب ونحوها ، وحمل الليث ابن المظفر عنه الفكرة الجديدة في وضع معجم شامل لا يقتصر على موضوع لغوى دون موضوع ، وانما يلم بالموضوعات كلها ، وكان الخليل قد بدأ في خلق هذه الفكرة ، وسار خلفها شوطا بعيدا . وحمل أصحابه الآخرون مقالتـه في العـروض العربى ، والاسس التي يقوم عليها الشعر العربي ، كمحمد ابن مناذر الشاعر البصرى الذي اتهمه بعض خصومه بالزندقة ، وبأنه يحمل كتاب الزندقة ، ولم يكن يحمل بيديه الا محاضرات الخليـــل في العروض العربى ، وانتهى هذا العلم الى الاخفش وعنه أخذ الناس .

ومن هنا استطاع صاحبنا ان يتصرف فيما لا يملك تصرف السطاة فيما لا يملكون ، فادعى انه استدرك على الخليل بحرا كان قد فاته العثور عليه ، وسماه المتدارك ·

واغلب اصحاب الطبقات كانوا رواة ونقلة ، ولم يكونوا مؤرخين وعمل الرواة هو النقل وحده ، وما ينقله الراوي لا يعبر عن رايه ، ولا يصور وجهة نظر . ولكن هذا لا يعفيهم أن يتثبتوا أو ينقدوا او يحاكموا ، ولكنهم لم يفعلوا من ذلك شيئا ·

وهذا سعيد بن مسعدة الاخفش يحتل مكانا بارزا من كتبهم ، ويترجح حاله عندهم بين تعديل وتجريح · يرفعونه الى مصاف النابغين في رواية ، ويصفونه بالضعف في رواية أخرى ويتهمونه بالسطو على آثار غيره في رواية ثالثة ،ولم يشعروا أنهم ناقضوا أنفسهم ·

وقد اتهموه على لسان أبى حاتم السجستانى بانه « اخذ كتاب أبى عبيدة في القرآن فاسقط منه شيئا ، وزاد شيئا ، وابدل منه شيئا » ، وبانه وضع كتابه في النحو من كتاب « علي الجمل » وهو من نحاة المدينة ، لانه ردد في كتابه كلمة (الزيت) في مثل قولهم : الزيت رطلان بدرهم ، والزيت لا يذكر عند اهل البصرة لانه ليس بادام لهم · وهو التفات

طريف يدل على ذكاء محمود في الدارس · ولا يستغرب من أبى حاتم مثله ·

ولا يتهم أبو حاتم بالتعصب على الاخفش ، فهو بصرى ، وشيوخه بصريون ، وهو ممن لقى الاخفش ، وقرأ الكتاب عليه ، ولكنه لم يكن يعترف له بالحذق ، ولا يراه في المنزلة التى وضعته الاخبار الملفقة فيها ، وكان يحدثنا أن الاخفش اذا التقى هو والمازنى تحاماه وتشاغل عنه لئلا يسأله المازنى عن النحو ·

فاذا أضيف هذا الى حديث الخطة البارعة التي اتفق على رسمها المازني والجرمى لاذاعة كتاب سيبويه في الناس ، والحيلولة دون أن يدعيه الاخفش لنفسه ظهرت لنا بشاعة التعصب الذى دفع المبرد وأبا سعيد السيرافي — وهما من المتحمسين للبصرية — ان يزعما أن الاخفش كان « من مشتهرى نحويي البصرة ، وهو أحذق أصحاب سيبويه » ·

فهل ترانا بعد هذه المدعيات التي يبطل بعضها بعضا ، ويفت بعضها في عضو بعض نصدق مزاعم القدماء ، أو نسايرهم في غفلتهم ، فنزعم دون وعى ان الاخفش كان قد استدرك على الخليل بحرا سماه المتدارك !! وهذا ابن منظور — وهو من عرفت أمانة واطلاعا — لم ير الاخفش جديرا بفهم مقاصد الخليل، وهذا القفطي يروى للخليل أبياتا على (فعلن) بثلاث متحركات وساكن منها قوله :

أبكيت على طلل طربـا
فشجاك واحزنك الطلل

وابياتا على (فعلن) ساكنة العين ، منهـــا قولــه :

فانبوا عمرا انى أخشى
صول الليث العادى الماضى

وكلاهما من الخبب أو المحدث أو ما يسمى بالمتدارك • فالعروض اذن بدوائره الخمس وبحوره الستة عشر ، وبجميع مصطلحاته والقابه من عمل الخليل وحده •

واذا كان لي مثل هذا الرأى في أبي الحسن معتمدا على رأي اصحابه والآخذين عنه ، فلا ينبغى ان انسى له حفظه ، وكثرة نقوله ، فلا يستطيع الدارس أن يمضى في دراسته قبل ان يتوقف هنا وهناك عند رواية لابى الحسن أو قول له • والاخفش كان من الحفاظ والنقلة ، وكان يذهب في عمله مذهب المؤدبين ، والتكسب بالعلم بحـــكم الرتاج دون التوسع ، ويقف بالمتكسب دون التعمق في أصوله وفروعه ، وحرفة الادب آفة الادبا، كما كان الخليل يقول ، وكان الاخفش يتكسب بعلمه حقا ، كان يؤدب أولاد الكســـائي ، وعينـــاه مشدودتان الى يديه •

هذه صورة من صور التزيد في التاريخ ، عبرت القرون وانطلت على الاذهان ، ولاكتها الالسنة على أنها حقائق ، واحيطت بالقداسة فقعدت عن محاكمتها العقول •

ثعلب

أبو العباس أحمد بن يحيى

٢٠٠ ـ ٢٩١هـ

لاحظ البغداديون في اوائل القرن الثالث ، أو على وجه التحديد عام ٢٠٤ للهجرة بوادر استعداد لمهرجان لم يألفه سكان بغداد من قبل ، فاخذوا يتساءلون في الاسواق ، وفي الاحياء وفي المساجد عما ستشهده بغداد في تلك الايام ، ولم يقفوا على حقيقة الامر الا بعد أن أعلن المنادى قدوم عبدالله المأمون الى بغداد من خراسان ليتخذ مقام آبائه مستقرا له يتولى منه تدبير الحكم وسياسة البلاد ٠

وما حل اليوم المعين لقدومه حتى اكتملت مظاهر الاستعداد لاستقبال الخليفة الجديد الذى سبقته شهرته في السياسة والحزم وحب العلم والعلماء ، وهرع سكان بغداد الى الطريق العامة والسكك التي يمر منها الموكب ، ومر الموكب ، فتسابقت الاعناق الى مشاهدة القادم العظيم ، وكان

بين عامة الناس رجل اصطحب ابنه لمشاهدة ما استبق الناس الى مشاهدته ، وكان ابنه صغيرا لم يتجاوز الرابعة من عمره فحمله على يده ليتسنى للطفل مشاهدة الموكب ، فلاح جلال هذا الموكب لعيني الطفل الذى أحس بالفرح يغمره وهو يعلو منكب والده ، واخذ يصغى الى أبيه وهو يقول له : هذا هو المأمون ، وهذه سنة أربع ، فلم تستطع الايام أن تمحو هذه الصورة المشرقة من ذهنه ، فكان يتحدث عنها لاصحابه وتلاميذه ، ويستعيد لهم ما كان شاهده وتأثر بمشاهدته ٠

وتذكر أمثال هذه الصورة وهو لا يزال طفلا يوحى بأن الطفل كان يتسم بالذكاء وحدة الذهن وقوة الذاكرة ، وأحمد بن يحيى هذا كان حفاظة حقا ، وقد ترجم هو لنفسه وكان يقول : « طلبت العربية واللغة في سنة ست عشرة ومائتين ، وابتدأت بالنظر في « حدود » الفراء ، وسنى ثماني عشرة سنة ، وبلغت خمسا وعشرين ولم يبق شيء من كتب الفراء في هذا الوقت الا قد حفظته » ٠

لم يدرك ثعلب الفراء في أيامه الاخيرة ، ولم يأخذ عنه ، لانه مات وثعلب لا يتجاوز عمره سبع سنوات ، ولكنه أقبل على دراسة كتب الفراء وأماليه ٠

ومرت القرون وكتب الفراء مجهولة ، لا يعرفها

الدارسون الا حين يرجعـــــون الى كتب الطبقات للوقوف على ترجمة الفراء وآثاره ، ولم تعرف أمهات كتبه الا حديثا بعد ان طبع كتاب الايام والليالى ، وكتاب معانى القرآن . ولكن اسم الفراء لم يكن مجهولا ، وآراءه لم تكن تخفى على دارس ، وشخصيته العلمية اللامعة لم تستطع السنون أن تمحوها ، كل ذلك يرجع الى اقبال أبى العباس احمد بن يحيى على مدارسة كتبه ، ورواية اقواله واملاء مجالساته التى تعتمد على آراء الفراء ، والى اعجابه باستاذه الذي اذا لم يتح له الجلوس الى مجلسه فقد قرأه وتتبع اخباره فيما كان يسمعه من التلاميذ الذين اتصلوا بالفراء اتصالا ، ورأوه عيانا ، وفي مقدمتهم سلمة بن عاصم الضبي أستاذ ثعلب الذي ملأ قلب ثعلب اعجابا بالفراء ، وعمره بالولاء له ... وكان من اعجابه بالفراء أن كان يقول : « لولا الفراء لما كانت اللغة لانه حصلها وضبطها ، ولولا الفـراء لسقطت العربية ، لانها كانت تتنازع ، ويدعيها كل من أراد ، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب » .

وبغداد يومئذ لا تزال تشيد بذكر الفراء ، ولا تزال حلقات الدرس في مساجدها تردد أقواله ، وتحتج بآرائه ، ورأت ثعلبا وقد ورث علم الفراء ، فاقبلت عليه اقبالا ، وغص مجلسه بالدارسين ،

ولا أعرف دارسا بغداديا أصبح بعد ثعلب اماما الا كان لثعلب يد في تنشئته واعداده للامامة ، فابو اسحاق الزجاج ، وابن كيسان ونفطويه ، وعلي بن سليمان الاخفش ، وابـن خالويـه وابو بكر بن الانبارى ، وأبو عمر الزاهد ، وغيرهم كثيرا ، كلهم تلمذ له وتخرج عليه ، أو تلمذ لتلاميذه وتخرج عليهم . وأكثر هؤلاء كان ممن استهواهم منطق البصريين ، وقوة جدلهم ، وتنظيمهم أصول هذه الدراسة ، ممثلا ذلك كله في منطق أبى العباس المبرد ، وقوة جدله وتنظيمه ، فأقبلوا عليه ، وهجروا مجلس أستاذهم الاول ، ولم يبق على ملازمته والوفاء لمنهجه الا أبو بكر بن الانبارى وأبو عمر الزاهد ونفر قليل .

راى هؤلاء تقريب الحاكمين للبصريين ، يمثلهم أصدق تمثيل أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، وتفضيلهم اياهم على خصومهم ، فخدعهم الاتجـــاه الجديد ، ولازموا أبا العباس وتلاميذه ، ونسوا ان اللغة لا تدرس في منطق أرسطو ، ولا في فلسفته ، وان الدراسة لا تنمو في مقاعد الانتظار للاذن بالدخول على خليفة أو حاكم ، ولكنها تدرس في منهجها الذى تمليه طبيعتها ، وفي مجالس الشيوخ الذين وهبوا أنفسهم للعلم ، وعافوا حياة الترف ، وأقبلوا على العلم اقبالا ، يجدون فيه متعة تفوق كل متعة ، ولذة لا تعد لها لذة .

وقد وهب ثعلب نفسه للعلم فكان « مشهورا بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ، مقدما عند الشيوخ مذ هو حدث » . وكانه على علم بالمنهج الذى تقوم عليه دراسة اللغة ، فلم يكن يحيد عنه أو يتخطاه ، ولم يهتم بان يعلم مذهب البصريين « ولم يكن مستخرجا للقياس ، ولا طالبا له ، فاذا سئل عن مسالة قال : قال الفراء ، وقال الكسائي ، فاذا طلب اليه أن يحتج أو يعلل لم يات بشيء » .

وكان ابن عبدالملك التاريخى يقول : « سمعت ابراهيم الحربى – وقد تكلم الناس في الاسم والمسمى – يقول : بلغنى ان أبا العباس أحمد بن يحيى النحوى قد كره الكلام في الاسم والمسمى ، وقد كرهت لكم ما كره أحمد بن يحيى ، ورضيت لكم ولنفسي ما رضى » .

كان ثعلب آخر استاذ كوفي ، لازم المنهج الذي رسمه الكوفيون لانفسهم ، وأول استاذ كوفي تجمع لديه هذا المقدار الضخم من المرويات في اللغة والشعر والادب ، وكان لمنافسه القوى أبى العباس المبرد أثر في ضعضعة كيانه ، وسيطرته على الدارسين في بغداد، وكان وجوده غصة في نفس ثعلب ، اجتمع به أكثر من مرة ، ولم يكن موقفه في هذه الاجتماعات التى يعقدها الامراء للمناظرة بينهما ضعيفا ، ولكنه كان

يبدو كذلك لضعف حجته في الجدل المفلسف ، وجهله بأساليبه ، فلم يكن من الذين يعنون بفلسفة اللغة ، ولا بمنطقة النحو ، ولم يكن في مستوى المبرد وقدرته على الباس اخفاقه ثوبا مهلهلا من النجاح فيما ياتي به من حجج لا صلة لها باللغة ولا بالنحو، ولا تهدف الى استجلاء الحق ، وانما تهدف الى اسكات الخصم ، واستلال اعجاب المستمعين الى المناظرة على حساب اللغة وعلى حساب النحو .

وقد سئل ختنه عن ذلك فكان يقول : « المبرد حسن العبارة ، فاذا اجتمعا حكم للمبرد ، فان مذهب ثعلب مذهب المعلمين » .

وهذا هو جانب الضعف فيه اذا جمعه بالمبرد مجلس المناظرة ، فكانت المسالة تطرح أمامهما ، فيتناولها كل منهما في الاسلوب الذى تاثر به ، فما يزال المبرد يقيس ويعلل ويفلسف المسائل ، ويحتكم الى العقل ، والى جدل المتكلمين ومقالتهم في العلة والمعلول والممكن والمستحيل ، وما يزال ثعلب ينخل مخلاته فيقع في رواية سمعها من الرواة ، أو رأي تناهى اليه من أحد شيوخه فيحتج به .

وقد جمعهما أحد هذه المجالس التي كانت تعقد للمسالة بينهما ، فسال المبرد ثعلبا عن همزة « بين بين » التى يعالجها القراء : أساكنة هي أم

متحركة ؟ فقال ثعلب : « لا ساكنة ولا متحركة » ، يريد أن القارىء يبقى فيها بعض الحركة ، فلا هي همزة ولا هو الف ، لان الهمزة تستبقي الحركة ، والالف تمتنع عليها ، فهي بين الهمزة والالف .

فقال المبرد : « قوله : لا ساكنة قد اقرانها متحركة ، وقوله : لا متحركة قد اقرانها ساكنة ، فهي ساكنة لا ساكنة ، ومتحركة لا متحركة » .

وينفض الناس من المجلس وقد حكموا للمبرد، لان المبرد كان يخاطب عقولهم بأسلوب جدلي مسكت، ولكنه لا يثبت للعرب قضية ، ولا يصحح أسلوبا .

وسئل المبرد وثعلب في مجلس ابن طاهر يوما عن قوله تعالى : « اذ قالوا لقومهم انا براء منكم » : كم لغة فيه ، فذكر ثعلب لغات العرب فيها ، وذكر ان منها أن يقولوا : براء كرغاء ، فالتفت ابن طاهر الى المبرد فساله عنها ، فقال له : سل ثعلبا من أين له هذه اللغة ؟ قال ثعلب : « حدثني سلمة بن عاصم عن الفراء انه سمع اعرابية تقول : « الا في السوة انتنه » تريد الا في السوءة انتنه ، فطرحت الهمزة » ، اراد ثعلب أن يقول : ان من أسلوب العرب في كلامهم التخفف من الهمزة لثقلها وصعوبة اخراجها ، وقول هذه الاعرابية شاهد على تخفيف السوءة بحذف الهمزة منها .

أما المبرد فقد وجد في مقالته هذه سانحة لاسكات خصمه ، ولفت أنظار المستمعين اليه ، فاخذ يواصل الجدل ، ويتبع الحجة بالحجة حتى انتهى الى قوله : « لا يترك كتاب الله واجماع العرب لقول اعرابية رعناء » .

وليست المسالة مسالة اجماع ، ولا القضية قضية منطق ، وانما هي سماع ونقل ، وقد كان ثعلب مصيبا وان ظهر في المجلس آنذاك انحياز الى جانب المبرد ، وند فيه حكم المستمعين على ثعلب .

وهل كان من ذنب ثعلب أن يعتمد في دراسة النحو على النقل والرواية عن الاعراب ، وأن يثق في الصحيح من الاخبـــار التى صححها شيوخه وأساتيذه من قبل ؟ وهل كان مجانبا صواب المنهج حين كان يكره الكلام في الاسم والمسمى ، ولا يلتفت الى اساليب المتكلمين ، ولا يرضى أن يدخل على دراسته دخيلا ؟

لم يكن ثعلب ليكون الا لغويا قد توافرت لديه أدوات الدرس اللغوى ، واقبل على الافادة من كثرة ما تجمع لديه من مرويات ، وسار في تنظيم هذه المرويات على السنن الذى اتبعه الكسائي والفراء من قبل ، وحرص على الا يفرط في هذه الامانة ، فتحملها كاحسن ما يكون التحمل ، وأداها كاحسن ما تكون التأدية .

ولثعلب تدين هذه الدراسة بالابقاء على قبس من الحياة التي ذهبت برونقها أساليب النحـــاة المناطقة ، فهو الذى بشر بالمذهب الكوفي ، وأذاع رسالة الكوفيين في الدارسين ، وبكتبه ومروياته وجد الدارسون المحدثون خيطا من الامل يحيى فيهم الرغبة في انتفاضة هذه الدراسة ، واعادة الحياة اليها من جديد ••• فقد قضى هذا العمر الطويل الذى اتيحت له الحياة فيه ، في الحفظ والتحمل والاملاء ، ولم يقعد به الهرم عن مواصلة ما نذر نفسه له ، ولا الصمم الذى امتحنته به الاعــوام الطـــوال عن الاستمرار في الـــدرس ، وانجـــاز الواجبات •

واتفق أن كان يوم جمعـــة وقد انصـــرف من الجامع بعد صلاة العصر ، وكان في يده دفتر ينظر فيه ، وقد شغله عما سواه ، فصدمته دابة لاحد المارة ، فسقط على رأسه في هوة من الطريق قد اخذ ترابها فلم يقدر على القيام فحمل الى منزله ، وهو كالمختلط ، يتأوه من رأسه ، ولم يلبث أن ودع الحياة بعد أن ترك للغة والادب ذخيرة ضخمة ، اتاحت له ولمنهجه الحياة المشرقة الخالدة •

المبرد

ابو العباس محمد بن يزيد

٢١٠ ـ ٢٨٥

فرغ الناس من صلاة الجمعة في أحد مساجد بغداد ، وأخذ المصلون ينفضون الا جماعة منأصحاب الحرف ، والصناع ، ومن الغرباء الذين وفدوا على بغداد وليس لهم مأوى غير المساجد الكثيرة المبثوثة في احيائها ، واشرأبت أعناق الجالسين في صفوفهم الى طارىء غريب وقد رفع صوته ، وطفق يفسر « موهما بذلك أنه قد سئل » ودنا بعض هؤلاء من مجلس الرجل حتى صارت حوله حلقة ، وأخذ ابو العباس يصل في ذلك كلامه •

وكان أحد أروقة المسجد يضم جماعة من أهل العلم وقد أحاطـــوا بأبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، وهو اذ ذاك عالم بغداد ، ومتجه انظار الدارسين الذين حفلت مجالس الدرس في بغـــداد بكثير منهم •

واستلفت حديث الغريب ثعلبا ، وسمعه يواصل كلامه شارحا ومفسرا ، مجيبا وسائلا فتشوف اليه والى الناس من حوله ، وظنه واحدا من اولئك النظار الخراسانيين الذين كانوا يفدون على بغداد ، يطلبون الرزق بالظهور على الدارسين بالجدل والمناظرة ، فطلب الى ابراهيم وهارون ، وهما من انبه من تلمذ له أن يسكتا هذا الصوت ، ويفضا الحلقة التي احاطت به ٠

وتقدم ابراهيم بن السرى الزجاج من ابى العباس محمد بن يزيد المبرد ليساله ، فساله ، واجابه المبرد ، وجود في الاجابة تجويدا بهره ، وابقاه سادرا لا يحير جوابا ، وشعر ابراهيم أنه امام مناظر ليس من اليسير اسكاته ، وانه يستمع الى شيخ يملأ السمع والعقل ، وشدة الاعجاب به الى مكانه فلم يصغ الى صاحبه وهو يطلب اليه الرجوع الى مجلس استاذهما أحمد بن يحيى ، وأعتزم في نفسه شيئا فقال لصاحبه الذى الح عليه بالقيام : اذهب الى شيخك فلست مفارقا هذا الرجل ٠

وشهدت مجالس الدرس من ابراهيم منتصرا للمبرد ، ومتحمسا للبصرية التي وجدت طريقها الى مجالس الدرس ببغداد ، بعد ان لم يكن لها في بغداد من اثر ، وشهد ذلك الركن الذى كان يضم ثعلبا

وأصحابه مهاجرة هؤلاء الاصحاب ثعلبا ومجلسه ، الى حيث يتسابق الدارسون ، وحملة الاقلام والدفاتر في الاستملاء على أبى العباس المبرد ، وشهدت مجالس الدرس اللغوى تحولا رئيسا من كونه قائما على النقل ، وهو المنهج الذي يمتاز به الدرس الكوفي الى كونه قائما على النظر العقلى ، وهو المنهج الذى سار عليه المدرس البصري وامتاز به ٠

وأبو العباس المبرد بصري آخر استهوته الهجرة من البصرة الى قاعدة الخلافة ، وداعبت نفسه النعمة الموفورة للوافدين على السلطان ، والسائرين في ركابه والجاهدين في ارضاء غروره ، والمتواضعين لاشباع كبريائه ، وكان قد بلغه ما صار اليه الكسائي والاخفش والاصمعي واليزيدى من حياة رافهة وعيش رخي ، وليس هو باقل من هؤلاء شانا في العلم ، واعتزم الهجرة الى حيث يكون ـ كما كان أولئك من قبل ـ أداة يسخره ذوو السلطان للدعوة لهم ، ونديما يقتلون به هموم الليالى الثقال ، ولازم مجلس المتوكل ملازمة الخواص ، حتى اذا قتل هرب من « سر من رأى » الى بغداد خائفا أو يائسا ، ولم يكن يعرف في بغداد أحدا ، ولم يكن يعرفه في بغداد أحد ، وانتهى به التطويف الى ذلك المسجد ٠

ولم تعرف بغداد شيخا مثل ابى العباس منذ أن توفى أبو زكريا الفراء ، ولا شهدت مجلسا

كمجلسه يزحم الطلبة بعضهم بعضا فيه بعد مجلس الثلاثاء الذى كان الفراء يملي فيه على الناس دروسا في النحو واللغة ومعانى القرآن .

ولو كان أبو العباس كهؤلاء الشيوخ الذين برعـوا في اللغـة والنحـو لهان أمره ، فبغـــداد كانت تضم كثيرا من هؤلاء بعد ان أغرت شيوخ البصرة وشيوخ الكوفة على الهجرة اليها منذ أن دبت فيها الحياة في عهد أبى جعفر المنصور . ولكنه كان – كما قال بعض الكتاب – « من العلم وغزارة الادب وكثرة الحفظ ، وحسن الاشارة وفصاحة اللسان ، وبراعة البيان ، وكرم العشرة ، وبلاغة المكاتبة ، وحلاوة المخاطبة وجودة الخط ، وصحة القريحة ، وقرب الافهام ، ووضوح الشرح ، وعذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد » .

واقتضته مصاحبة المتوكل في سر من رأى أن يعد نفسه أعدادا يفى بما تتطلبه هذه المصاحبة من عناية خاصة باخبار الشعراء والفصحاء ، وبأمثال العرب وخطبهم ونوادرهم وأخبارهم وكان أبو العباس كذلك ، فصيحا مفوها حافظا ، قوى الحجة ، قوى الجدل ، كان مناظره ابو العباس ثعلب يحجم حتى عن لقيه في طريق ؛ لان ثعلبا كان يعلم تفوقه في جدله ومنطقه .

وطبقت شهرة المبرد آفاق العراق ، ولفتت اليه أنظار الناس ، ودعاه أمير بغداد محمد بن عبدالله ابن طاهر الى مجلسه ، فاعجب به ، وأدناه من نفسه، وعقدت المناظرات في مجلسه بينه وبين ثعلب ، وكان في مناظراته يتفوق على ثعلب ببيانه الاخاذ ، ومنطقه البارع ، واستطاع أن يزحزح ثعلبا عن مكانه في مجلس هذا الامير ليستوى عليه ، وتم له في بغداد ما كان يداعبه من أماني وهو في طريقه اليها من « سر من رأى » بعـــد تلك الفتنة التي اطاحت بالمتوكل .

كان أبو العباس في حداثته معروفا بالذكاء والفطنة ، وكان في سن مبكرة يتصدر في حلقة أبى عثمان المازنى ، يقرأ على المازني كتاب سيبويه ، وللمازني عناية خاصة بالكتاب ، وبرع في موضوعات الكتاب حتى كان ابو حاتم السجستاني ، وهو أحد الشيوخ الذين تلمذ لهم المبرد ، يعرف فيه فطنته ، فكان اذا قدم دارس يرغب في قراءة الكتاب أشار عليه بالانتفاع من أبى العباس ، ولا أعرف غير المبرد مرجعا لكتـــاب سيبويه في الاقاليم العربية الاخرى ، فتلاميـــذه ، وفي مقدمتهم أبو اسحاق الزجّاج وأبو بكر بن السراج وابو الحسن علي بن سليمان الاخفش الصغير وأبو محمد بن درستويه ، وتلاميذ هؤلاء كالزجاجي والسيرافي وكانوا قد تناقلوا

الكتاب عنه تعليما ورواية ، وانتقل منهم الى تلاميذهم في مصر والمغرب والاندلس ·

ولم يكن النحو وحده ميدان تخصصه ، فقد استندت شهرته الى ميدان آخر كان هو الجانب المثنى في شخصيته الفذة ، وهو الادب بمعناه المعروف في عصره ، وكتابه : « الكامل » كان أحد دواوين الادب الرئيسة التي حفظت تراث العرب ، وكان ابن خلدون قد سمع من شيوخه في مجالس التعليم : « ان أصول فن الادب وأركانه أربعة دواوين ، وهي كتاب الكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لابن علي القالي البغدادي · وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع منها » ·

واذا كان للمذهب البصري أن يعتز بالداعين اليه ، والذابين عنه فللمبرد الحظ الاوفر من هذا الاعتزاز . واذا كان للبصرة ان تفخر بأبنائها الابرار الذين شاركوا في صنع تاريخها ، وبناء كيانها العلمي . فالى أبى العباس ينتهي هذا الفخر بعد الخليل بن احمد ، واذا كان الخليل استاذ البصريين المبدع الذى مهد لهم سبيل الابداع فمحمد بن يزيد كان تلميذها البارع الذى مهد لهذا التراث الضخم سبيل الحياة والخلود ·

وكلا الرجلين عربي صليبة ، وكلاهما يماني النجار ازدي ، الا أن عربية الخليل عربية عالمة مسلمة ، أوسع أفقا ، وأبعد حدا ، وعربية المبرد تلوح فيها جوانب القبيلية والتعصب ، و « الكامل » غني بالامثلة ، ففيه باب طويل عن الأذواء في الجاهلية والاسلام . وباب طويل عن المهلب بن أبى صفرة الازدى وفيه اشارات انبثت في ثنايا الكتاب عن اليمانيين من جهة ، وعن نظرة العرب عامة الى الموالى الاسلام من جهة أخرى ·

ولا اريد ان أوازن بين الرجلين ، فالفرق بينهما بعيد ، والموازنة بينهما واهية ، فقد كان الخليل من ازهد الناس وأشدهم تعففا ، واعلاهم نفسا ، يتأبى أن يبيع علمه بيع السلع ، ويتعفف أن يوقفه على مجالس الامراء وذوى السلطان ، وكان المبرد على شيء من اليسار ، وعلى كثير من الحرص ، لا يأبى أن يمد يده حتى لتلاميذه ، فقد لام تلميذه أبا اسحاق الزجاج يوما حين قطع ما كان تعوده منه، والزجاج يتحدث عن ذلك ويقول : « لازمت خدمة عبيدالله بن سليمان الوزير ملازمة قطعتني عن أبى العباس المبرد وعن بره ، وعن اجرائي عليه ما كان تعوده مني ، ثم مضيت اليه يوما ، فقال : هل يقع حسد الانسان من نفسه ؟ فقلت : لا · قال : فما معنى قول الله سبحانه : « ود كثير من أهل الكتاب

لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم » ؟ فلم أدر ما وجه ذلك • فقال : ينبغى ان تعلم أن ههنا اشياء كثيرة قد بقيت عليك ، فاعتذرت له ، ووعدته بالرجوع الى ما تعـــوده منى » •

والخليل بن أحمد يستقبل وفدا من سليمان ابن علي والي الاهواز يلوح له بالثروة والجاه ، ويرد الخليل الوفد ردا جافيا ، والمبرد يشد الرحال الى « سر من رأى » طلبا لما عافه الخليل ، ويتاح للمبرد ما كان يطمح اليه ، ويختصه المتوكل بمجالس سمره مع الفتح بن خاقان •

وتصنع الاخبار لتفسير مهاجرته الى سر من راى ، وهي أخبار تهدف الى تصوير اقبال الحاكمين على العلم ، وتقديرهم لذويه ، قبل أن تهدف الى بيان تفوق المبرد في العلم وبعد صيته في الآفاق ، وتفتعل هذه الاخبار جدلا بين المتوكل ووزيره الفتح بـن خاقان ، أحدهما يقرأ « انها » من قوله تعالى : « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » بالكسر ، والثاني يقرؤها بالفتح ، وتقع المشاجرة بينهما ، ويتبايعان على عشرة آلاف دينار ، ثم ينظران فيمن يحق بينهما وينتهي بهما الامر الى اشخاص المبـرد من البصـرة مكرما ، ليفض النزاع بينهما ، ويحضر المبرد فيلتقى بالفتح بن خاقان أولا ، فيعرض عليه المسالة فيقر

مقالته بكسرها ، ويمثل بين يدي المتوكل فيقر مقالته بفتحها أيضا ، ويطالب المتوكل الفتح بن خاقان بما تبايعا عليه ، فيقتضيه عشرة آلاف دينار ، ويعتذر المبرد للفتح بن خاقان سرا بأنه فعل ذلك تخلصا من اللائمة وهو أمير المؤمنين •

ويبقى المبرد في سر من رأى الى اليوم الذى قتل فيه المتوكل ، ثم يهاجر الى بغداد ليشيد فيها مجده في الادب والعلم ، ويكتب للبصرة صفحة من الخلود •

القارسي

ابو على الحسن بن أحمد بن عبدالغفار

توفى سنة ٣٧٧هـ

ارايت كيف ينتشر النور في الظلام ، وكيف يتغلغل في أعماقه فيحيل دنياه الموحشة الى دنيا من الانس مشرقة ، وعالمه الجامد الى عالم فيه من سمات الحياة شيء كثير ؟ أو رأيت كيف يشيع الخصب في عام الديم فيتفتح للحياة كل شيء على وجه الارض ، وتشيع البسمة على الربوات وفي الوديان وفي كل شيء حي ؟

هكذا كان العلم ينتشر من مجالس الدرس في البصرة ليضيء كل شيء من حوله ، والهداية تشيع منطلقة من مجالس الوعظ والقصص في مساجدها . وكان العلماء الذين خرجوا منها نقاط ارتكاز للعلم والهداية في بلدان الشرق السحيق .

وغير بعيد من متناول البصـــرة ، وفي اقليم

شيراز ولد صبي من أبوين مسلمين ، من أب فارسى وام عربية سدوسية ، فسمياه الحسن ، ورعيـــاه كاحسن ما تكون الرعاية ، وأسلماه لمن يقرئه القرآن ويعلمه الكتابة ، وأرادا ان ينشئاه تنشئة تقر لها اعينهما ، وتطيب لها انفسهما ، فعهدا به لمؤدبين يأخذ عنهم مبادىء العلوم ، لينشأ الصبي كما ينشأ الصبيان في الاحياء المجاورة وفي المدن القريبة . فنشأ الصبي وعليه من امارات الذكاء ما كان تكأة له يقيم عليها شخصيته التي لم يعرف أبواه ولا غير أبويه أنها ستحتل مكانا مرموقا بين النابهين من الدارسين ، في البصرة وفي بغداد وفي حلب وفي غير هذه من الحواضر الاسلامية . ولم يدر أبواه ولا غير أبويه أن الدارسين في عهده سيقرنون اسمه باسم سيبويه فيقولون : « ما كان بين سيبويه وأبى علي أفضل منه » .

وكانت مدينة العسكر غير بعيدة من بلدته ، وكان شيخها اذ ذاك أبا بكر مبرمان الذى درس عليه أبو سعيد السيرافي ، فذهب الحسن صبيا الى العسكر ، ولقى أبا بكر فيها ، واختلف الى مجلسه ، واستملاه النحو ، وشمر وهو ابن عشرين ونيف بالرغبة الملحة تدفعه الى بغداد دفعا ، فقد كانت تجتذبه وتدعوه الى مجالس الدرس فيها ، وكانت بغداد اذ ذاك من الشهرة في مكان الصدارة في العالم

الاسلامي ، وكان الدارسون يقصدون اليها من الشرق والغرب للتخرج بشيوخها . ووصل الحسن الى بغداد في عام سبع وثلاث مائة للهجرة .

كان في بغداد اذ ذاك من تلاميذ أبى العباس المبرد : أبو اسحاق الزجاج أبو بكر محمد بن السرى السراج ، وكانا من أشد المتحمسين للمذهب البصرى، ومن القوامين عليه بعد أبى العباس المبرد ، وكان (الكتاب) كتاب البصريين ، ومصدر دراساتهم ومستلهمهم ، فأخذ يختلف الى حلقتيهما ، ويستمليهما ، ويقرأ الكتاب عليهما ، وكان ذكاؤه وحدة ذهنه يقفان به عند موضوعات خاصة في الكتاب ليست من النحو وليست من هذه الموضوعات التي كان الدارسون يتبارون في الظهور فيها ، موضوعات اغفلها الدارسون ، وما كان ينبغى لهم أن يغفلوها ، موضوعات لا يستغنى عنها دارس لغوى أو نحوى ، يتصل بعضها بدراسة الاصوات . وبعضها بفقه اللغة من تصريف او اشتقاق ، فاقبل عليها اقبالا ، واخذ يعنى بها عناية جعلت اقباله على الاعراب في المقام الثاني من نفسه ، واذا فضل الدارسون عليه ابا سعيد السيرافي في النحو فلا أظن واحدا منهم كان يفضله عليه في موضوع تخصصه الذي عرف به ، فميدانه جديد بعض الجدة ، ومصدره هذه الموضوعات المتناثرة في فصول الكتاب وأبوابه ، مما أعلاه على

سيبويه شيخ العربية واستاذ اللغة الاول ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدى .

وحفلت حلقته بتلاميذ نابهين كان يوجههم الى هذا التخصص الجديد توجيها كان من آثاره هذه البحوث اللغوية الطريفة التي طلع بها على الناس تلميذه أبو الفتح بن جني في الخصائص ، وفي سر صناعة الاعراب ، وموضوعات هذين الكتابين تفصيل لما أجمله الخليل من موضوعات أملى بعضها على سيبويه ، وبعضها الاخر على تلميذه الليث بن المظفر فيما أملى من فصول كتاب العين ، بالرغم من غفلة أبى الفتح ونسبة كثيرة من اصول هذه الموضوعات الى نفسه أو الى شيخه أبى علي .

لذلك قصر أبو علي عن اتمام شرح للكتاب كان يحسد أبا سعيد السيرافي أن وفق الى اتمامه ، ولم يكن لابى علي من شرحه الا تعليقات أشار اليها اصحاب الطبقات ، ولم يصل الينا منها شيء ، ولعلها كانت المرجع الذي صدر عنه أبو الفتح في دراسته اللغوية .

ولذلك كان دون معاصره أبى سعيد في دراسة الاعراب ، لانه كاد ينصرف عنه الى دراسة لغوية ، وكان لذلك يعنى بالقياس عناية شغلته عن أن يتمكن من الرواية اللغوية تمكن أبى سعيد منها ، وهي

القاعدة التي تقوم عليها الدراسة النحوية ، ولذلك كان أبو منصور الجواليقي يفضل أبا سعيد عليه ، لانه كان أروى من أبي علي ، واكثر تحققا بالرواية ، وأغزر منه فيها ٠

وانصرف أبو علي عن الرواية فعلا ، ولم يكن يرى فيها كبير أمر ، وكان يعنى بالقياس عناية جعلته يغفل أثر الرواية اللغوية في الدراسة النحوية، مسلك أبي حنيفة في اغفاله الحديث واقباله على القياس ٠ وكان أبو علي يقول : « أخطىء في مائة مسألة لغوية ، ولا أخطىء في واحدة قياسية » ٠

وقاده شغفه بالقياس الى أن يكون أبعد الدارسين من نحو الكوفيين . والى أن يقبل على الدرس البصري اقبالا جعله يقصر عنايته على كتاب سيبويه في النحو وعلى كتب أبي زيد في اللغة كما كان أبو حيان يقول ٠

وهو اتجاه خطر كان من نتائجه انصراف الدارسين عن الرواية اللغوية التي هي المصدر الحيوي لهذه الدراسة ، واقبالهم على القياس وما يتصل به من أصول عدها النحاة المناطقة أصولا لهذه الدراسة ، وكان من آثار هذا الاتجاه الذي ظهرت بوادره منذ عهد أبي العباس المبرد أن أصيبت هذه الدراسة الحيوية بالجمود ، ودب فيها العقم ،

ولكنها مخضت فاولدت هذا المسخ المتمثل في موسوعات النحو ومختصراته ٠

واقام أبو علي في بغداد زمنا طويلا ، ثم أخذ يطوف في بلاد الشام ، ووصل الى طرابلس ومنها الى حلب ، فاقام فيها زمنا اتصل فيه بأميرها سيف الدولة الحمداني ٠

وانه لفي طريقه الى الشام اذ مر بجامع الموصل ، فوجد شابا يقرىء العربية ، وسمعه يتكلم في مسألة من مسائل الصرف ، فوقف ، ثم اعترض عليه فوجده مقصرا ، فأجاب هو عن المسألة ، ثم التفت الى الشاب وقال له : تزببت وانت حصرم ، فأعجب الشاب بهذا الشيخ ، وسأل عنه فقيل له : هذا أبو علي الفارسي ، فصمم أن يترك الموصل ، وان يلازمه ليأخذ عنه ، وطالت ملازمته اياه ، وأكثر من الاخذ عنه ، وأصبح بعد حين من أنبه تلاميذ أبي علي وأقربهم اليهم ، واشدهم اتصالا به وتقديرا له ، وكان هذا الشاب هو أبا الفتح بن جني ٠

صحب أبو الفتح استاذه في رحلته الى الشام ، واتصل بسيف الدولة باتصال استاذه به ، ولكن صلة أبي علي بسيف الدولة لم تدم ، ولعله لم يسلم من أذى الوشاة وكيد الحساد ، فلم تصف له الصحبة فخرج من حلب يريد العراق ، فاتصل بعضد الدولة وراى عضد الدولة من أبي علي ما حمله

على اكباره والاعجاب به ، وكان أبو علي يلازمه في حله وترحاله ، وكان يقرئه ويقرىء أولاد اخيه العربية حتى كان يقول : « أنا غلام أبي علي الفارسي في النحو » .

وصنف أبو علي له كتاب الايضاح في النحو ، فاستقصره وقال : « مازدت على ما أعرف شيئا ، وانما يصلح هذا للصبيان » فأجتهد أبو علي نفسه في تصنيف كتاب التكملة ، فلما وقف عليه عضد الدولة قال : « غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو » .

وكان عضد الدولة يوما في الميدان ومعه أبو علي ، فسأله عن نصب المستثنى بالا « فقال : بتقدير أستثنى . قال له : لم قدرت أستثنى فنصبت ؟ هلا قدرت امتنع زيد فرفعت ! فقال : هذا جواب ميداني، فاذا رجعت قلت الجواب الصحيح » .

ومع أن أبا علي كان قد وصل في صحبة الملوك والامراء الى ما كان يطمح اليه كثير من معاصريه جاها وغنى ، الا أنه كان يضيق بتقصيره عما بلغه زميل له كان هو يغمز به لتعليمه الصبيان ومعلمي الصبيان وهو أبو سعيد السيرافي ، فقد ادرك من العلم ما كان يطمح أبو علي الى مثله ، وكان يحز

في نفسه أن يخرج أبو سعيد للناس بشرح للكتاب قصر عنه حتى شيوخه .

ولكن ولوج القصـــور ، ومصانعة السلطان ومنادمة الامراء ، ومشاركتهم في الشرب والمخالعة قعدت بأبى علي عن ادراك ما أدركه أبو سعيد بجده ودابه وانصرافه الى طلب العلم ، ورضاه باليسير ، ومقاساته الحرمان مما غرق فيه الفارسي من جاه ونعيم ، لذلك كان أبو علي يتقد بالغيظ على أبى سعيد وبالحسد له .

الرماني

أبو الحسن على بن عيسى البغدادي

الــوراق

٢٩٦ ـ ٣٨٤هـ

نشأ الفتى رقيق الحال ، يجد في كسب معاشه ما يجد الكادحون من تعب وارهاق ، وكان يحس في نفسه القدرة على العمل ولا يتسنى له عمل يقتات به • وكان ابوه قد رباه تربية حسنة ، وتعهده صبيا ، فعهد به الى مؤدبين قرأ عليهم القرآن ، وتعلم بهم الكتابة ، وكان الفتى عفا ذكيا ساءه أن تمر الايام عجلى ولا يفيد مما حوله •

وكانت مجالس الدرس في أيامه عامرة بالعلماء والادباء والشعراء ، وكانت بغداد منذ تمصيرها مقصد العلماء وغاية الشعراء ومجتمع التجار ، ففيها يجد التاجر بغيته في رواج بضاعته وسلعه ، ويجد الشاعر في قصور الخلفاء والامراء والوزراء فيها ما

يشجعه على القول ، ويجد العالم والمؤدب ما يحفزه الى التعلم والتعليم •

ولم يكن علي بن عيسى الرماني من أسرة موسرة يرث عنها الاتجار او المال الذي يغنيه عن طلاب العمل الذي يسد به حاجته ، ويظهر به للناس فيما يرضى طموحه ، ويتناسب مع ما فطر عليه من ذكاء ، فكان يأنف أن يمد يده كما يفعل المؤدبون أو يريق ماء وجهه في مدح غال كما كان الشعراء يفعلون •

كان الرماني كغيره من الفتيان يختلف الى المساجد للصلاة والسماع والاستملاء ، وقد أحس أن في طلب العلم ارضاء لتوثبه وطموحه ، وفي اكتسابه تهدئة لنزعاته ، وكان اقبال الناس من حوله على العلم يدفعه الى طلبه دفعا ••• ولكن ••• ما مصير عياله اذا قعد عن العمل وفاته اكتساب العيش ؟ وكيف يوفق بين حاجته وحاجاتهم ؟•

كان هناك سبيل واحدة يحقق بها ما يريد ، ويجمع بها بين تحقيق ما يصبو اليه من مواصلة الدرس وما تحتاج اليه ظروف العيش •

ويرى الناس دكانا يفتح قريبا من المسجد الجامع حيث يجتمع الشيوخ وطلاب العلم ، دكانا لا يعرض على الناس أقطا وسمنا ولا تمرا وعسلا ،

وليس فيه من مرافق العمل الا دواة واقلام وكاغد ورقوق ، وقد انتحى الفتى ركنا منه وهو مكب على انتساخ كتاب كان بين يديه ، فعرفوا أن هذا الدكان دكان وراقة ، وأن هذا الفتى هو الوراق ، ودعاه الناس منذ ذاك بالوراق • أما نسبته الى الرمان فلا يدرى أهي نسبة الى الرمان وبيعه أم نسبة الى قصر الرمان الذي كان معروفا بواسط ، وكان « قد نسب الى هذا وهذا خلق كثير » •

كان اقبال الدارسين على الدرس اقبالا عظيما تشهد به هذه المساجد العامة والخاصة التي حفلت بحلقات الدرس في موضوعات شتى ، وكانت حلقات الكلام أوسع الحلقات وأحفلها بالطلاب ، فقد انتهى عهد الارهاب بانتهاء عهد المتوكل ، وزال الخطر على الناس أن يتعاطوا الفلسفة والجدل الكلامي ، ورأى الناس بزوالهما متنفسا وتحررا من الظلم الذي أظلهم ، وانفلاتا من الاضطهاد الذى كان يعانيه النظار واصحاب الكلام •

وكانت حلقات اللغة والنحو لا تقل عنها اتساعا وازدحاما بطلاب العلم ، وقد خلف المبرد وثعلب علما جما ورواية غزيرة ، وتركا بعدهما تلاميذ نابهين كان من بينهم : أبو اسحاق الزجاج وعلي ابن سليمان الاخفش وأبو بكر بن الانبارى وأبو حنيفة الدينورى وابن كيسان ونفطويه ، وأبو بكر

ابن السراج ، واكثر هؤلاء كان قد تلمذ للرجلين كليهما •

وكان لدراسة النحو واللغة بهؤلاء وتلاميذهم شأن عظيم ، فقد كانوا الصلة بين الاجيال الحديثة والاجيال القديمة التي توجت أعمالها بأعمال الخليل والفراء • فكان العمل الذى أخذوا على أنفسهم تحقيقه شرح ما تلقوا من أساتيذهم ، وما رووه عنهم في مجالسهم • وقد شرح كتاب سيبويه من هؤلاء : على بن سليمان الاخفش (توفى سنة ٣١٥هـ) وأبو بكر بن السراج (توفى سنة ٣١٦هـ) وأبو سعيد السيرافي (توفى سنة ٣٦٨هـ) •

وتمر الشهور والسنوات واذا بدكان هذا الوراق عامر بمؤلفات القوم وشروحهم وتعليقاتهم ، واذا هو يصل الليل بالنهار ، ينتهى من انتساخ هذا الكتاب ليبدأ بانتساخ آخر • وكان عمله يغنيه عن الاختلاف الى حلقات الدرس ، وعن استملاء شيوخها، وربما وجد من الوقت ما يعيد فيه قراءة هذا الكتاب او اذا وجد فيه في اثناء انتساخه ما يحبب اليه اعادته ، وربما وجد من الوقت ما يسمح له بالاتصال بأحد الشيوخ يسأله ويستوضحه وكان يختلف فعلا الى مجلس ابى بكر محمد بن السري السراج ويأخذ عنه ويقرأ عليه كتاب سيبويه وغيره ، وينبه ذكره في الدارسين ويشيع اسمه فيهم ويكثر المعجبون به

فيتصدر حلقة ، ويتخرج به جماعة من الطلاب من بينهم : أبو القاسم التنوخى وأبو محمد الجوهري وهلال بن المحسن الكاتب ، ويملي عليهم وعلى غيرهم تعليقه على كتاب سيبويه ، ويستوى للدارسين من ذلك شرح آخر للكتاب .

كان يأخذ النحو عن أبى بكر بن السراج ، وعن أبى اسحاق الزجاج ايضا ، ويأخذ اللغة عن ابن دريد ، وكان يأخذ الكلام عن أبى بكر احمد بن علي المعروف بابن الاخشيد ، وكان الرماني شديد الاعجاب به ، كثير الاختلاف الى مجلسه حتى نسب اليه فقيل : الاخشيدى .

وكان للكـــلام غلبة على ثقافتـــه ومنهجه في الدرس ، ولعله كان من المتكلمين البارزين في عهده ، وكان أبو حيان التوحيدي يحضر مجلسه ويعجب به ، وقد قرأ ياقوت بخط ابي حيان : أن علي بن عيسى « لم ير مثله قط علما بالنحو وغزارة في الكلام وبصرا بالمقـــالات واستخراجا للعويص وايضاحا للمشكل مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهة وعفافة ونظافة » .

وكان أبو الحسن كغيره من المعتزلة قد وهب نفسه للدفاع عن الدين والجهاد في سبيله ، ومصارعة خصوم الدين بجداله وبيانه ، كما كان أشياخه من

المعتزلة الاولية يفعلون ، وكما كان المعتزلة الاولون قد تميزوا بقوة العبارة وفصاحة المنطق ورصانة الفكر كان أبو الحسن الرماني كذلك ، وانعكس دفاعه وجهاده فيما قدم للدرس من أعمال قرآنية توجت بشرحه معاني القرآن للزجاج ، وتاليفه تفسيرا كبيرا كان الصاحب بن عباد يكبره ويثنى عليه ، وخوضه في مسألة الاعجاز التي شغلت المفكرين من المسلمين دهرا طويلا ، والمتكلمين منهم بوجه خاص ، فقد الف كتاب « النكت في اعجاز القرآن » تناول فيه القول بالاعجاز تناولا يكاد يكون جديدا ، وهنا تظهر براعة الرماني في استخلاص أسرار الاعجاز من بلاغة القرآن ، وكشف أسرار الجمال الذى يقوم عليه أسلوبه وصوره التعبيرية البيانية ، وايجـاد العلاقة بين اعجاز القرآن وفعل القرآن بنفوس الذين كان يخاطبهم ويتحداهم حتى لكادوا يذهبـون في تعليل سلطانه على نفوسهم اذا تليت عليهم آياته كل مذهب ، فقالوا هو شعر ، وقالوا هو سحر ونعتوه بغير ذلك من النعوت حين حالت كبرياؤهم دون الاذعان له والتصديق به .

غلب الكلام على تفكير أبى الحسن حتى أخضع له كل شيء تناوله بالدرس ، حتى النحو الذي لا ينبغي أن يتنـــاول كما يتناول موضـــوع من موضوعات الكلام ، واذا أعجب أبو حيان وغيره بنحو

الرماني ، واذا اثبت أصحاب الطبقات له عدة كتب في النحو فلم يكن نحوه – كما يبدو – ليكون نحو العربية ،فقد خرج النحو به وبمعاصريه عن أن يكون دراسة اسلوب وتفسير لغة ، وصارت موضوعات النحو عنده وعند معاصريه موضوعات للجدل والمناظرة تخضع لاحكام العقل واصول الاستدلال .

وكان الدارسون منذ أن استهواهم مأخذ المبرد في تفسير قضايا النحو وتفوقه على ثعلب في الجدل قد شقوا بالنحو طريقا وعرا وانبتوه في واد غير ذى زرع فاودوا بنضارته ، وطوحوا ببريقه ، ووجدوا في منحى الرمانى ما يشبع رغبتهم في خلق نحو جديد لا يتصل بنحو العربية من قريب او من بعيد ، وليس فيه من نحو الخليل والفراء الا مصطلحات حالت معانيها ، والا عبارات تغيرت دلالاتها ، وشعر طلاب العربية بعظم الفرق بين أسلوب القدماء في تناولهم موضوعات النحو وأسلوب شيوخهم في تناولها ، وكانوا يختلفون الى حلقات الدرس اللغوى يتصدرها الرمانى فلا يسمعون نحوا، ولكنهم يشعرون انه يأخذ بهم الى متاهة لا يرون لهم فيها مخرجا ، ولذلك كانوا يقولون : « النحويون في زماننا ثلاثة واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني ، وواحد يفهم بعض كلامه وهو أبو علي الفارسي ، وواحد يفهم جميع كلامه بلا استاذ وهو السيرافي » .

اما الذين يريدون أن يدرسوا نحو العربية وأن يتفهموا طبيعتها وأسلوب العرب بالتحدث بها – ان وجد لهؤلاء أمثال – فلم يجدوا في مجلس الرماني او في مجلس غيره ممن كان ينحو منحاه وينهج منهجه شيئا يهيىء لهم ذلك .

وليس ببعيد أن الناشئين من الدارسين اذ ذاك كانوا يضجون بالشكوى كما تضج الناشئة في زماننا هذا وأن الغيارى على التراث العربي أدبه وشعره كانوا يتململون من هذا التقعر الفلسفي في توضيح مسألة او تفسير ظاهرة ، تململ الغيارى على اللغة والادب اليوم ، واذا لم يتح لهذه المقالة أن تحظى بأمثلة من كلام الرمانى في النحو فحسبها ما قاله أبو علي الفارسي – وهو يعاصره – اذ قرأ شيئا وصل اليه من كتب الرماني في النحو .قال أبو علي : « ان كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وان كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء » .

فالعلة التي اصابت النحو ليست حديثة ، وليست من صنع المتاخرين ، ولكنها قديمة تمتد جذورها الى القرن الثالث ، ومضى الدارسون الناشئون جيلا جيلا يتلقون مثل هذا النحو المفلسف ، ويتجادلون بعضهم مع بعض في مسائله واصوله على النحو الذي كان المتكلمون يجادل بعضهم

بعضا في مسائل الكلام وأصوله ويخوضون بعضهم مع بعض في الكلام عن العلة والمعلول ، وعن الدور والتسلسل وعن الممكن والمحال ... واستطاع النحو المريض أن يعبر هذه القرون ، وأن يخطو ثقيلا على العقول ، ولم تثنه الدعوات النادة من حوله ، ولا الصيحات المدوية هنا وهناك ، وسره أن يجد في مدارسنا الحديثة من يحتفي به ويفرضه على الناشئة في مقررات مدارسنا اليوم .

السيرافي

ابو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان

توفي سنة ٣٦٨هـ

وسيراف بلـــدة صغيرة على ساحل الخليج الشرقي ، لا تبعد عن تاثير البصرة قاعدة الاســلام والحــاضرة التي انطلقت منهــا البــداية الى شرق الامبراطورية الاسلامية .

وكان من أهل هذه البلدة رجل اسمه بهزاذ ، وكان مجوسيا ، فاضطر ان يسلم في مثل هذه البيئة المسلمة الذابة عن حياض الاسلام وكتاب الاسلام ، ليضمن له الاسلام حريته ، ويصون له ماله ودمه . وكان متوقعا أن يجهل التاريخ اسمه كما جهــل اسماء الذين يسكنون هذه البلدة لولا أن يكون أبا لصبي قدر له أن يكون علما من أعلام العربية ، يغار على اســـلام أبيه فيسميه عبدالله ، ويقترن اسمه باسمه ويعرفه التاريخ أبا لابي سعيد السيرافي .

ويعيش عبدالله بين المسلمين واحدا منهم ، له

ما لهم وعليه ما عليهم ، ويشب أولاده فيعتزم أن ينشئهم كما ينشىء المسلمون أولادهم ، ويعهد بابنه الحسن الى أحد المؤدبين يقرئه القـــرآن ، ويعلمه القراءة والكتابة · وينشأ الصبي نشـأة علمية ، وتنطوى نفسه على رغبة قوية في طلب العلم ، فيخرج وهو دون العشرين من عمره الى عمان عبر الخليج الى الساحل العربي منه ، فيأخـــذ الحديث من محدثيها ، ويتفقه بفقهائها ، ويعود الى سيراف ، ولم يكد يستقر فيها حتى يسمع بأبى بكر محمد بن علي المعروف بمبرمان ، وكان هذا من أهل بلدة العسكر في اقليم الاهواز ، وكان بعض من تلمذ لابى العباس المبرد ، ويقرأ النحو عليه ، ولعله ضيق على نفسه بنقده الاجر الذى كان يسميه أبو بكر رسما ، لان أبا بكر كان ضنينا بالاقراء ، وكان يقتضي من يقرأ عليه الكتاب مائة دينار ، لم يعف أحدا منها ، ولم يفلت أحد من اقتضائها الا أبو هاشم الجبائي في خدعة طريفة سجلها ياقوت له في ترجمة مبرمان ·

واجتذبته بغداد اليها بعد ان اجتذبت كثيرا من أعلام اللغة والنحو والادب ، وقد هاجر المبرد اليها من قبل وسيطر المذهب البصري به على مجالس الدرس ببغداد ، وأحس الحسن بالرغبة في الاستزادة من طلب العلم تدفعه الى بغداد دفعا · ووصل الى بغداد فتى عفا أبيا لم يكن لديه من مدخرات يستعين

بها على الايام في هذه القاعدة الاســـلامية المكتظة بالسكان ، والتي كانت تتطلب من المهاجر اليها مالا كافيا وافيا بمتطلبات العيش فيها ، ويستعين به على الظهور بمظهر المترفع الابى العف ·

وكان لابد لهذا الفتى أن يعمل وأن يكد وأن يوفق بين ما نشأ عليه من اباء وعفاف وزهد وما يتطلبه المقام في بغداد ، فتوصل الى عمل لا يعوقه عن مواصلة الدرس ، ولا يقتضيه وقتا يحتاج اليه في سماع أو استملاء ، فقد اشتغل بالوراقة وانتساخ الكتب بأجر ، فكان ينتسخ كل يوم عشر ورقات بعشرة دراهم هي ما كان يحتاج اليه في اليوم ، يقيم به أوده ، ويفي له بمطالب العيش · وكان يواجه هذا القصد الذي فيه كثير من الحرمان بنفس راضية ما دام يعينه على متابعة الدرس ، ويوفر له وقتا يجلس فيه الى الشيوخ ، ويهيء له المناقشة والجدال في موضوع تخصصه مع اساتذته وزملائه في مجالس الدرس ·

قصد الى بغداد ليدرس القـــرآن والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغـــة والفقه والفرائض ، وكان من المبرزين في الدراسة القرآنية أبو بكر ابن مجاهد ، فاتصل به وأخذ عنه ، ومن النابهين في اللغة وروايتها أبو بكر ابن دريد ، فلزمه مدة طويلة، ثم أخذ يختلف الى مجلس أبي بكر بن السراج فقرأ

عليه كتاب سيبويه ، وكان ابن السراج اذ ذاك مختصا باقرائه ، ومن هنا أخذ تخصص أبي سعيد بالنحو ينمو حتى كان من نموه أن خرج للناس بشرحه الكبير لكتاب سيبويه ، الشرح الذى كان محسدا من أجله ، فكان معاصروه من أعلام العربية يعجبون بهذا المجهود الضخم الذي عجز عن مثله شيوخ لهم كانوا معروفين بسعة الاطلاع وطول الباع . وكان أبو علي الفارسي خاصة يتقد غيظا عليه ، وقد حال غيظه الى جحود ، فأخذ هو وأصحابه ، يفضلون الرماني عليه حين يطلب اليهم الموازنة بينه وبين أبي سعيد .

ويبدو من ثنايا ما كتب عنه أنه كان ملما بغير العربية أيضا ، فقد كان عارفا بالحساب بالقدر الذى كان التقدم العلمي يقتضيه ، لذلك درس عليه ابو بكر بن السراج أو ابو بكر مبرمان ، وكان أبو سعيد قد تلمذ لهما في النحو من قبل .

ويبدو من ثنايا ما كتب عنه ايضا انه كان حسن الخط فقد كان يتكسب به وكان يتكسب بالوراقة ، ولقد أراده الصيمرى أبو جعفر على الانشاء والتحرير فاستعفى ، وقال : هذا يُحتاج فيه الى دربة وأنا عار منها ، ومن العناء رياضة الهرم » .

ولعله لم يكن كما قال في استعفائه ، ولكنه كان زاهدا في المناصب ، زاهدا في زبرج الحياة

وزخرفها ، قانعا بهذه الدراهم المعدودات يصرّف فيها شئونه وحاجاته ، مقتفيا مثله الاعلى في العفة والزهد والاباء ، والاقبال على طلب العلم والانصراف عن الدنيا ، الذى قل أن يشهد التاريخ العربى له نظيرا ، أعنى الخليل بن أحمد الفراهيدى ، الذي ابتسمت الدنيا لتلاميذه وهو في خص لا يُشعرُ به . وكان ابو سعيد كثير الاستشهاد باقواله ، شديد الميل الى احتذائه .

كان أبو سعيد قانعا بعشرة الدراهم حتى حين كان يخلف أبا محمد بن معروف على القضاء ، وكان ينتسخ الورقات العشر قبل أن يخرج الى مجلس الدرس أو الى مجلس القضاء من كل يوم .

وعاصر أبا سعيد السيرافي علمان من أعلام العربية هما : أبو علي الفارسي ، وأبو الحسن الرمانى ، وكانوا قد تلمذوا جميعا لابي بكر بن السراج ، ولكن كلا منهم كان قد انفرد بشيء عرف به ، فقد كان أبو علي الفارسي يعنى بأصول النحو وبما كان يسمى في عهده بفقه اللغة . وانحاز أبو الحسن الرماني الى طريقة المعتزلة ، وكاد يتخصص بالدراسة القرآنية وما يتعلق باعجازه والدفاع عنه ، شأن المعتزلة الاولين الذين كانوا يقارعون الخصوم ، وكتابه : « النكت في اعجاز القرآن » يبرز هذا الاتجاه في جلاء ووضوح ، أما نحوه فحسبنا ما سمعناه من

أبي علي الفارسي في نقده : « ان كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وان كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء » .. واقبل أبو سعيد على موضوع تخصصه وهو النحـو ، فالم بالمذهب البصري الماما جعل منه علما من أعظم أعلامه ، ولم يفته أن يلم بالمذهب الكوفي ونحو الكوفيين ، وهو نحو يمثل جانبا واسعا من دراسة العربية لا يستغنى عن الالمام به دارس ، والنحو الذى يقوم على المذهب البصري وحده نحو أبتر لا يمثل نحو العربية . وكان أبو سعيد يشعر بذلك ، فاقبل على دراسة المذهب الكوفي ، وفي زمانه من أعلام الكوفيين : أبو بكر بن شقير الذي كان يعد في طبقة أبى بكر بن السراج ، هذا بصري المذهب وذاك كوفيه ، فأصبح له بصر تام بمذهب الكوفيين ، حتى ما كان يطيق أحد مجادلته او نقض رأى من آرائه .

وكان يحيط بهذه الثروة العلمية الضخمة اطار واضح من الثقافة الكلامية الواسعة التي ظهـرت آثارها فيما كتب وعلق وفيما أملى وجادل ، وتفسيره لكتاب سيبويه مثل واضح لسيطرة المنهج الكلامى على ثقافته ، وقد اتيح لي أن أقرأ بعض الاجزاء من تفسيره فاذا به لا يكاد ينتهي من تعليل حتى يبدأ بتعليل آخر ، ولا يكاد ينتهي من معالجة مشكلة حتى يأخذ بالقارىء الى مشكلة اخرى ، لا تكاد تنتهي حتى

تسلمه الى مشكلة ثالثة ورابعة ، فيضيق صدره ، ويلتفت يمنة ويسرة فاذا هو في متاهة من التعليلات والتفسيرات التي لا تمت الى اللغة بصلة ، ولكنها طابع الدرس في القرن الرابع ، لم يكن الافلات منه ميسرا للدارسين أمثال أبي سعيد ، وليس أدل على هذا من المناظرة التي جرت بينه وبين متي بن يونس القنائي الفيلسوف في مجلس الوزير أبى الفتح بن الفرات ، وتصدى أبى سعيد له ، ومن حوله من أعلام الفكر : الخالدى وابن الاخشيد والكندي وابن أبى بشر وقدامة بن جعفر وغيرهم في مناظرة طويلة دهش ابن الفرات والحاضرون لها ، واعجبوا بمنطقه وقوة جدله وروعة بيانه ، دونها أبو حيان عن علي ابن عيسى الرماني ، ونقلها ياقوت في معجمه .

ويرد ابن العميد الى بغداد ، فيكرم العلماء ، ويعمر مجلسه بهم وبأعلام اللغة والادب البغداديين اذ ذاك ، ويصل أبا سعيد والرماني بمال ، وانهما في مجلس ابن العميد اذ بأبى الحسـن العامرى الفيلسـوف النيسابوري يحضـر هـذا المجلس ، ويتجاذب الحضار أطرافا من الحديث في موضوعات شتى ، ويتساءلون عما كان يعن لهم من مشكلات علمية او أدبية ، ويتكلم العامري ، ويسال أبا سعيد فيوفق الى جواب يرضي الحاضرين ، ويعجب به ابن العميد مع قوة هذا المناظر وخطره ، ومنزلته في نفوس

الحاضرين . وكان أبو سعيد نفسه يقول : « ما دُهيت قط بمثل ما دُهيت به اليوم » يعنى يوم اجتماعه بأبي الحسن النيسابوري الفيلسوف .

ويتحدث الاندلسي الى ياقوت فيقول له : « فارقت بلدي في اقصى الغرب طلبا للعلم ، وابتغاء مشاهدة العلماء ، فكنت الى أن دخلت بغداد ، وتلقيت أبا سعيد ، وقرأت عليه كتاب سيبويه نادما سادما في اغترابي عن أهلي ووطني ، من غير جدوى في علم أو حظ من الدنيا ، فلما سعدت برؤية هذا علمت أن سميي قرن بسعدي ، وغربتي اتصلت ببغيتي ، وان عنائي لم يذهب هدرا ، وان رجائي لم ينقطع يأسا » .

وخمدت هذه الجذوة المتقدة بعد عمر طويل يزيد على الثمانين عاما ، ولكنه عمر جاد حافل ، لم يعصف به الزمان كما عصف بغيره من الاعمار التي ذهبت ذهاب الرقم على الماء .

أبو الفتح عثمان بن جنّي

توفي سنة ٣٩٢هـ

عجب الناس من أمر هذا الصبي الذي لايختلف الى صبيان الرحبة في غدوهم ورواحهم ، ولا يشاركهم فيما هم مقبلون عليه في براءة وانطلاقة ، ولكنه ما يكاد يخرج من بيته الى الرحبة حتى يرجع اليه ، تلوح الغمة على قسمات وجهه ، والكآبة على بريق احدى عينيه . وتحتضنه أمه تلاطفه ، والحسرة تعصر قلبها الحنون عصرا ، والالم يعصف بنفسها عصفا ، وهي تمنيه بمستقبل باسم تقر له عيون أبويه .. تذكره بان أباه سيحتفل بيوم ختمه القرآن ، سيدعو الى بيته كل لداته ، يمرح معهم ، ويمرحون معه ، وسيجتمعون من حوله على مائدة الطعام الذي سيمده أبوه فرحا بهذه المناسبة السعيدة ... وماذا تبتغي يا بني ، وقد فضلت كل هؤلاء اللدات بقوة حافظتك ، وفصاحة لسانك ، واستظهارك كتاب الله مما قصروا عن بعضه !! وماذا تريد وقد شاد نباهتك شيخ الجامع ، وأثنى عليك

أصدقاء أبيك ! واذا كان الله قد متعك باحدى عينيك فقد وهبك لسانا لافظا وقلبا حافظا ، وذكاء نادرا فلا تبتئس يا بني فان أمامك في مستقبل أيامك ، كما أتوقع ، مكانة مرموقة بين النابهين من ابناء الموصل ·

والصبي مصغ الى أمه ، مفكر فيما تتنبأ به ، موشك أن ينسى ما علق في نفسه البريئة من كرب ، شاعر بالاطمئنان يتسرب الى نفسه ، ويمسح دموع عينيه ، وهو يعد أمه بتحقيق ما تأمل ، وبانجاز ما تتوقع ، ويفلت من بين ذراعيها في هدوء ، ويختطف النظر الى أمه ، فيراها وهي تمسح بقايا الدموع الحائرة على خديها ، فيحز في قلبه ، ويعانقها عناقا حارا ·

ومنذ ذلك كان عثمان بن جني يختلف الى مسجد الموصل ، يتلقى مبادىء علوم العربية ، متلمذا لاحمد بن محمد الموصلي أحد مشاهير المعلمين اذ ذاك ·· ومرت الايام والصبي يصبح فتى جادا في عمله جدا ينطوي فيه كثير من الالم الذى كان يعانيه وهو صبي ،وجيرانه يشاهدونه ، وهو يتابط كتبه في رواحه من البيت الى المسجد ، وفي غدوه من المسجد الى البيت ، ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى شوهد يتصدر حلقة في مسجد الموصل الجامع ، يختلف اليه فيها صغار طلبة العلم ، وهو

يلقي محاضراته ، كما يلقي الشيوخ محاضراتهم ، والصغار يصغون اليه ، ويكتبون عنه ·

وانه لفي هذه الحال اذ مر بالمسجد الجامع شيخ العربية أبو علي الفارسي في أثنـــاء زيارته الموصل ، فاستوقفه مجلس هذا الفتي اليافع ، ومن حوله تلاميذه ، وهو يمل عليهم ، وأحس الشيخ أن لهذا الفتى شانا ، وأن له مستقبلا في العلم حافلا ، وظل الشيخ يستمع اليه غير بعيد عنه ، فراقه أن يتصدى له ويثيره ، وأن يلفت نظره الى مواصلة الدرس ، والاخذ عن الشيوخ قبل أن يتصنـــع الشيخوخة ، ويتكلف الاستاذية ، فاقبل عليه يساله عن مشكلات في الصرف ، وغلبه ابو علي ، وطبيعي أن يغلبه ، ولكنه حقق ما يريد لهذا الفتي ، وما كان ليريد له الا أن يستزيد من العلم ، وأن يستأنف التلمذة لشيوخ العربية ، وجدير بمثل هذا الفتى أن يفعل ذلك · انه يحمل بين جنبيه نفسا كبيرة ، وتبدو عليه ملامح الذكاء ، وينطوى حديثه وجداله على شيء كثير من الفصاحة وقوة المنطق ، وهذا ما كان أبو علي يرمي اليه ، وقد افلح في ذلك ، ففي منتهى النقاش قال له أبو علي : « تزببت ، يا بني ، وأنت حصرم » · وما كاد يبتعد عنه حتى سال ابن جنّي عنه فاذ قيل له : هذا أبو علي الفارسي طوى في نفسه امرا ، أن يلازمه ، وأن يتلمذ له ، وأن

يأخذ عنه شيئا كثيرا ، وحينئذ لا يتصدى له مثله ، فيغلبه في مسألة من مسائل الصرف ، واتصل به فعلا ، ولازمه اربعين عاما .

وأبو علي هذا من أوائل اللغويين الذين شاركوا في تنمية البحث اللغوي في العربية ، وقد اخذ عن نابهين بصريين وكوفيين ، وكان لابي اسحاق الزجاج انبه تلاميذ أبي العباس المبرد تأثير خاص في تكوين شخصيته العلمية ، ورسم خطوط منهجه العلمي ، لذلك اتجه في دراسته اتجاها بصريا ، كان يعنى بالقياس عناية فائقة ، وكان يتخذ منه أداة رئيسة للدرس اللغوي ، وهو الذي كان يقول : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم » ، وعقد ابن جني لهذا القول بابا خاصا في (خصائصه) ، وهو الذي كان يقول : « اخطىء في خمسين مسألة في اللغة ولا أخطىء في واحدة من القياس » .

وأبو علي هذا يعد متمما لما بداه الخليل من دراسات تتعلق بفقه اللغة والاشتقاق ، شارحا لمختصراته التي رويت عنه هنا وهناك ، موحيا لتلميذه ابن جني كل ما كان يعن له من موضوعات عامة تتصل بهذا المجال الحيوي موكلا اليه تفصيل ذلك .

وقد اخذ عن أبي علي هذا تلاميذ نابهون كأبي

الفتح بن جني ، وعلي بن عيسى الربعي ، وأبي طالب العبدي ، وأبي الحسن الزعفراني ، وعضد الدولة البويهي وقد كان يقول : « انا غلام أبي علي الفارسي في النحو » ، وكان في مقدمة من تلمذ له ابو الفتح بن جني .

ولا اظن ابن جني تلمذ لغير أبي علي بعد اتصاله به ، فلم يفرق بينهما الا الاجل الذي حم على أبي علي في عام ٣٧٧ للهجرة ، بعد صحبة قوية طويلة أمدها أربعون عاما .

وبعد خلو المجلس الذي كان ابو علي يتصدره في بغداد بوفاته اتجهت الانظار الى انبه تلاميذه ، والصقهم به ، واعرفهم بمنهجه ، وأوعاهم لمجالسه ، فاذا بطلبة العلم يختلفون الى مجلس يتصدره أبو الفتح ، واذا بهم يقبلون عليه اقبالا ، واذا بمجلسه يضيق برواده ، وبالاقلام تتشابك تسجل مجالسه ومملياته ، واذا بأبي الفتح يصبح اليوم غيره بالامس ، واذا به ـ لو كان المتنبي حيا ـ لا تصدق عليه كلمته فيه : « انه رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » ، فقد اصبح مرجع الناس بعد أبي علي ، وصار أستاذا من اساتيذ اللغة ، وشيخا من شيوخ العربية في بغداد .

وقد تلمذ له الثمانيني أبو القاسم عمر بن

ثابت الضرير النحوي ، والبصري عبدالسلام الحسين اللغوي ، والسمسمي أبو الحسن علي بن عبدالله ، وأولاده الثلاثة : علي وعالٍ ، وعلاء ، « وكلهم ادباء فضلاء ، قد خرجهم والدهم وحسن خطوطهم ، فهم معدودون في الصحيحي الضبط ، وحسني الخط ، كما ذكر ياقوت .

وتشير مقالة المتنبي في ابن جني الى انه كان يعرفه ، وكان يجله ويحترمه ، فاذا التفتنا الى ابن جنّي ، وتتبعنا صلته بالمتنبي رأينا أن لابن جنّي بأبي الطيب المتنبي صلة ومحبة ، واعجابا . اجتمع به في حلب عند سيف الدولة ، واجتمع به في شيراز عند عضد الدولة ، وكان ابو الطيب يبادله حبا بحب ، واعجابا باعجاب ، فكان اذا سئل عن معنى بيت أحال السائل على ابن جني ، لانه كما كان يرى لم يقول ما اراد وما لم يرد .

يروى ابن خلكان انه « سال شخص ابا الطيب المتنبى عن قوله :

بادٍ هواك صبرت ام لم تصبرا

فقال : كيف اثبت الالف في (تصبرا) مع وجود (لم) الجازمة ، وكان من حقه ان تقول : (لم تصبر) ، فقال المتنبي : لو كان أبو الفتح هينا لاجابك » .

وكان ابو الفتح مغتبطا لهذا ونحوه ، لانه مرسل من أبي الطيب نفسه ، وابو الطيب ، كما يعرفه ابن جنّي وغيره ، معدود في النابهين في النحو واللغة ، بل هو احد شيوخهما .

وكان المتنبي محسّدا كثير الاعداء ، لطول باعه في الشعر ، ولاعتداده بنفسه اعتدادا ، وكان كثير من شيوخ الادب يستثقلونه ، ويكرهون فيه ما ياخذ به نفسه من كبرياء ، وكان أبو علي استاذ ابن جنّي احد هؤلاء ، وكان ذلك يســـرد أبا الفتح ويؤذيه ، لان لابي علي في نفسه صورة من الكمال لم يرد أن تشوه بذم أبي الطيّب ، وانتهز أبو الفتح يوما فرصة طلب أبي علي أن يُذكّر له بيتُ من الشعر يفتتح به مجلسه ، فانشد قول أبي الطيب ، ولم يسنده اليه :

حلت دون المزار فاليوم لوزر
ت لحال النحول دون العناق

« فاستحسنه ابو علي ، واستعاده ، وقال : لمن هذا البيت فانه غريب المعنى ؟ فقال ابن جني : للذى يقـــول :

ازورهم وسواد الليل يشـــفع لي
وانثني وبياض الصبح يغـــري بي

فقال والله عذا أحسن ، بديع جدا ، فلمن هما ؟ قال : للذي يقول :

أمضى ارادته فسوف له قد
واستقرب الاقصى فثم له هنا

فكثر اعجاب أبى علي ، واستغرب معناه ، وقال : لمن ؟ فقال ابن جنّي : للذي يقول :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

فقال : وهذا أحسن ! والله لقد أطلت يا أبا الفتح ، فأخبرنا من القائل ، فقال : هو الذى لا يزال الشيخ يستثقله ، ويستقبح زيه وفعله ، وما علينا من القشور اذا استقام اللب : قال أبو علي : اظنك تعنى المتنبى . قلت : نعم » .

وكان أبو الفتح لشدة اعجابه بأبى الطيب وبشعره كان أول من شرح ديوانه ، ثم جاء الشراح بعده وهم بين منصفله ، ومتجنٍ عليه . وكان أبو الفتح اذا ذكر أبا الطيب قال : شاعرنا .

قرأت لابن جنى في الجزء الاول من الخصائص في باب « أن العرب قد أرادت من العلل والاغراض ما نسبناه اليها ، وحملناه عليها » :

« وحدثني المتنبى شاعرنا ـ وما عرفته الا صادقا ـ قال : كنت عند منصرفى من مصر في جماعة من العرب ، وأحدهم يتحدث ، فذكر في كلامه فلاة واسعة ، فقال : يحير فيه الطرف ، قال : وآخر منهم يلقنه سرا من الجماعة بينه وبينه فيقول له : يحار ، يحار » .

وجره الى صحبه أبى الطيب ، فيما يبدو لي ، اتصاله بسيف الدولة الحمداني ، وعضد الدولة ، ثم دراسات في الشعر ، والاراجيز ، والعروض والقافية ، فلابن جني عناية بالحماسة ، وله اعراب لاشعاره ، وله كتاب ـ كما يزعم القفطي وغيره ـ يسمى باعراب الحماسة ، وله كتاب سماه « مختصر العروض » ، وآخر سماه : « مختصر القوافي » ، وآخر سماه « تفسير العلويات » ، وهي أربع قصائد للشريف الرضي ، وله كتاب الاراجيز وكتاب آخر في تفسير أرجوزة أبى نواس .

وقد رثى المتنبى بعد مقتله بقصيدة طويلة يقول فيها :

ما زلت تصحب في الجُلّى اذا نزلت
قلبا جميعا وعزما غير منشعب
وقد حلبت لعمرى الدهر اشطره
تمطو بهمة لا وانٍ ولا نصب

وقرضه الشعر سبب ثالث أتعلق به في توضيح صلة ابى الفتح بأبى الطيب ، وكان الباخرزي ، كما يروى القفطي في انباه الرواة ـ يقول : « ما كنت أعلم انه ينظم القريض ، أو يسيغ ذلك الجريض حتى قرات له مرثية في المتنبى » ولكن الذي يعجبهم الشعر ويروقهم يوردون له شعرا آخر في مستوى جيد يرتفع عن شعر العلماء أمثاله كثيرا ٠

وابو الفتح بن جني كغيره من الدارسين الذين لم يستطيعوا التوفيق بين الاقبال على التحصيل ، والفناء في طلب العلم ، وتوفير ما لا غنى عنه من موارد يقتات بها ، ويستعين بها على مواصلة البحث ، فلابد من مورد يكفيه مؤونة الحياة واعباءها ، وليس أمام الدارسين من أمثاله الا التراخي أمام المغريات التى تنبعث من قصور الامراء ، وفي مجالسهم ومنادماتهم ، وقد سبقه الى مثل هذا كثير من الدارسين قبله ، كالكسائي واليزيدي والاصمعي والمبرد وأبى علي الفارسي نفسه ، فلم يجد بدا من أن يدلي بدلوه في الدلاه ، وان يستغل اقبال الامراء على العلماء وتشجيعهم المؤلفين ، فاتصل بسيف الدولة الحمداني ، وهناك عرف أبا الطيب ، واتصل بعضد الدولة البويهي في شيراز وخلفائه من آل بويه ٠

ولكن ابن جنى ، مع ذلك ، كان لا يدع فرصة

الا استغلها في طلب العلم والاطلاع على جديد ، فكان أن احتل بين طلبة العلم في بغداد وغيرها مركزا مرموقا ، وقدم للدرس العربي مددا جديدا ، ولمجالس الدرس مواد جديدة ، وخاض مجالات للدرس عزيزة على غيره من الدارسين منذ أن توفي الخليل والفراء فكان أبو الفتح ، بحق ، متمما لما بدأه الخليل من بحوث في اللغة تتعلق بدراسة الصوت ، وبنية الكلمة وما كان يسمى بفقه اللغة ٠

وكان في مقدمة أعماله الفخمة كتابان ما يزالان مرجع الدارسين في فهم آراء الخليل ، وأعماله في المجالات اللغوية ، وهما :

كتاب سر صناعة الاعراب ، ومداره الحروف من حيث مخارجها وصفاتها ، وتآلف بعضها مع بعض في البناء ، وحروف المعاني من حيث بساطتها وتركيبها ، ومن حيث ما تدل عليه من معان ومن حيث وظائفها في الاستعمال ٠

وكتاب الخصائص ، ومداره اصول الدراسة النحوية ، وخطوط منهجها ، وما يتعلق بذلك من بحوث في القياس والعلل والاجتهاد والاجماع ، وغير ذلك ٠

وقد طبع الكتابان مؤخرا ، فظهر لابن جني من الاصالة وسعة الاطلاع ، وتذوق اساليب العرب

في كلامهم ما لم يعهد في غيره من الدارسين الذين تعاقبوا على مجالس الدرس بعد الخليل والفراء •

وكان ابن جني يعرض ما يكتبه على أستاذه أبى علي فيقره عليه ، ويزداد اعجابه به ، ويشجعه على المضي في تمهيد هذه الطريق الوعرة التي تحاماها كثير من الدارسين على ما لهم من بعد الهمة وطول الباع في الدرس اللغوي والنحوي • ان تلمذة ابى الفتح لابى علي الفارسي حملته على أن يكون من الذين يذهبون مذهب أهل البصرة ، وهو بصري المذهب فعلا ، يُعنى بالقياس ، ويُعنى بالتعليلات والتخريجات والتأويلات ، وهو بالاضافة الى ذلك يُعنى بالرواية عن استاذه وعن شيوخ بصريين كثيرين ، وعن كثير من رواة الادب واللغة ، كابن مقسم راوية ثعلب ، وأبى الفرج الاصفهاني ، وأبى حاتم السجستاني ، ومحمد بن سلمة عن ابي العباس المبرد •

ثم هو الى ذلك أيضا يُعنى بالسماع من أعراب لم تفسد لغتهم ، ولا تزال مفرداتهم بعيدة عن التاثر بلغة العامة ، وممن يثق بلغتهم كأبى عبدالله محمد بن العساف العقيلي التميمي الذي ورد ذكره في غير موضع من الخصائص ، فكان يسالهم ، ويتحيل في اسئلته حتى يصل الى ما يريد ان يصل اليه منهم وكان يقول : « حضرني قديما بالموصل

أعرابي عقيلي جوثي تميمي ، يقال له محمد بن العساف الشجري ، وقلما رايت بدويا أفصح منه » • وكان يقول : « سالت يوما أبا عبدالله محمد ابن العساف العقيلي الجوثي التميمي ، تميم جوثة ، فقلت له : كيف تقول : ضربت أخوك ، فقال : أقول : ضربت اخاك ، فأدرته على الرفع فأبى ، وقال : لا اقول أخوك أبدا ، فقلت : فكيف تقول : ضربني أخوك ؟ فرفع فقلت : ألست زعمت أنك لا تقول : أخوك أبدا ؟ فقال : ايش هذا ، اختلفت جهة الكلام •• فهل هذا الا أدل شيء على تاملهم مواقع الكلام واعطائهم اياه في كل موضع حقه وحصته من الاعراب عن ميزة وعلى بصيرة ، وانه ليس استرسالا ولا ترجيما » •

ويبدو ان مروياته عن شيوخ البصرة بلغت من الكثرة حدا كبيرا ، وأن قراءاته كتبهم بلغت من السعة حدا كبيرا أيضا ، ولكنه يترخص في روايتها بالمعنى دون التقيد بالنص ، وكان من جراء ذلك أن قصر في نسبة بعض الآراء الى اصحابها ، وأن بعد عن الدقة في نقل بعض الآراء ، وكان لهذا التقصير مظاهر ارجو أن لم تكن متعمدة ، فقد أهمل ذكر الخليل في مواضع عثرت عليها حتى خيل للدارس أنها لابن جنّي ، ويزيد ابن جنّي في حمله على مثل هذا التخييل أن ينسب الى نفسه أمورا لو تتبعها الدارس الفاحص لاوصله تتبعه الى الخليل •

من هذا مقالته التي عقـــد لها بابا سماه : اسماس الالفاظ اشباه المعاني ، فقد قال فيه : « قال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان انها للاضطراب والحركة ، نحو النَّقَزان والغَلَيان والغَثَيان ، فقابلوا بتوالي حركات المثـال توالي حركات الافعال ، ووجدت انا من هذا الحديث أشياء كثيرة » يعنى على مثال ما جاء به سيبويه ، مع أن في النص تغييرا واضحا لمن يرجع الى الكتاب جزئه الثاني ، ومع أن هذا الرأي انما هو راي الخليل لا رأي سيبويه ، لان سيبويه نفسه أشار الى هذا وقال بعد ذكر راي الخليل هذا: وهكذا ماخذ الخليل.

في مثل هذا الترخص ، فيما أرى ، عيب كنت أفضل لهذا الدارس الكبير الا يقع في مثله ، فلن ينقصه أن ينسبه الى صاحبه ، ولن يمس شخصيته العلمية في قليل او كثير أن يرجع الحق الى نصابه ، والاثر الى أصحابه فالامانة العلمية تقويم للعالم ، وتقويم لسيرته وأعماله ، ولعل لابن جني عذرا فاتني كما فات كثيرين من الدارسين ·

وبعد جهود مضنية ، وتلمذة مجهدة ، وتدريس متواصل طوى تاريخ الدرس اللغوي صفحة لامعة من صفحاته اللامعات ، وأضاف التاريخ الاسلامي الى أعلامه الخالدين علما خالدا جديدا ، وما زال يشير في كثير من الاعتزاز الى آثار قيمة خالدة مقرونة باسم أبي الفتح عثمان ين جني ·

ملحـــق

نحـاة اندلسيون

لقد هدأ في القرية كل شيء ، ونام فيها كل حي ، ولم يقطع سكون الليل الا أصوات متقطعة تبعث بها الى المسهدين أطيار هائمة في كبد السماء · وبرم الفتى بطول الليل وهو يتقلب على فراشه يمنة ويسرة في انتظار الفجر وتنفس الصباح ·· وكاد يتفطر يأسا لولا همهمات تصل الى اذنيه من الحجرة المجاورة ، حجرة والدته التي لا شك أنها قضت الليـــل كما قضـاه تقلبـا على اليمين وعلى الشمال ، وتفكيرا في الغد الذى تفارق فيه فلذة كبدها الى ديار بعيدة تفصلها عن هذه القرية آلاف الاميال ·· وأخذت الهمهمات تفصح في اذن الفتى حين فتح باب الحجرة فاذا هى آيات من القـرآن الكريم تتلوها السيدة وهي في طريقها الى المغتسـل لتتوضأ لصلاة الصبح · وتنتهي السيدة من صلاتها وتقوم لاعداد الفطور ، وتدب الحياة في الدار شيئا فشيئا ، وتختلط أصوات الاحياء فيه ، والفتى هادىء في فراشه قد غرق في تفكير عميق في المستقبل الذي اخذ منذ الآن يمد اليه ذراعيه ليقدمه الى الناس في

هذه القرية وفي القرى المجاورة شيخا يحف به تلاميذه يستملونه الحديث والفقه واللغة والنحو ، وليس بينه وبين تحقيق هذه الامنية الا سنوات يقضيها في حلقات الدرس في مساجد البصرة أو الكوفة او بغداد أو القاهرة •

وكان يعزي هذه السيدة في مفارقة وليدها ما تنامى اليها من أنباء استعداد فتيان القرية والقرى المجاورة لها للسفر بعيدا لطلب العلم في تلك الاقاليم النائية ، فليست الوحيدة التي تفارق ابنها ، وليست بالمرأة التي ترضى لابنها أن يتخلف عن أقرانه الذين سيرجعون الى أوطانهم مليئة عبابهم بأخبار المشرق ، عامرة قلوبهم بالمعرفة ، وسيرجع اليها وليدها ليكون عزا لذويه وفخرا لها حين تجتمع نساء الحى يتفاخرن بأبنائهن •• وارتسمت على شفتيها الواهنتين ابتسامة الفخر ولكنها ابتسامة لم تلبث أن ضاعت في زحمة الخوف والقلق على ابنها حين تتلقفه الآفاق البعيدة أعواما قد تطول فلا يسعدها الحظ برؤية ابنها الوحيد مرة أخرى •

وكان المضيق الذى يفصل بلاد الاندلس عن شمال افريقية يشهد في كل عام مئات من السفن التى تقطعه الى الساحل المواجه ، تحمل هؤلاء الذين تاقت أنفسهم الى طلب العلم ، ودفعتهم الى ركوب الاخطار أملا بالمثوبة وتوقعا لاكتساب العلم في تلك

الاقطار الشرقية التي كانت تعج برجال العلم في الموضوعات المختلفة •

ومرت الاعوام وشهد المضيق الذى يفصل افريقية عن بلاد العرب الجديدة في اقليم الاندلس هؤلاء الرجال يرجعون الى أوطانهم وعلى وجوههم أمارات البشر بحياة علمية ستشرق بعد حين في هذا القطر العربى المسلم الذى ينتظرهم بصبر نافد •

وشهدت بلاد الاندلس أبا موسى الهروي الفقيه اللغوى الذى كان في رحلته الطويلة قد لقى مالكا ومعاصريه من أئمة الفقه ، ولقى الاصمعى وأبا زيد الانصارى وغيرهما من الرواة واللغويين والنحاة •

وشهدت الغازى بن قيس وكان معلما يلتزم التاديب في قرطبة أيام عبدالرحمن الداخل يئوب بعد رحلته في المشرق وهو يحمل معه موطأ مالك ، وقراءة نافع بن أبى نعيم مقرىء أهل المدينة وأحد القراء السبعة ، ويستأدبه هشام بن عبدالرحمن وابنه الحكم لابنائهما •

وشهدت جودى بن عثمان الموزورى وهو يرجع بكتب الكوفيين بعد أن لقى الكسائى والفراء وأخذ عنهما •

وشهدت عثمان بن المثنى وهو يرجع من المشرق بعد أن لقى حبيب بن أوس الطائى وحمل

معه شعره ، وابن الاعرابى الراوية الكوفي المعروف وحمل عنه مروياته .

وشهدت ثابت بن عبدالعزيز السرقسطى وابنه قاسما وهما يئوبان من رحلتهما وبين ايديهما كتاب العين يراه الاندلسيون أول مرة .

وشهدت محمد بن أبى علاقة البواب القرطبى بعد أن سمع الكامل من أبى الحسن علي بن سليمان الاخفش الصغير .

وشهدت محمد بن موسى بن هاشم بن يزيد بعد أن أنهى رحلته بلقيه أبا جعفر الدينورى وانتساخه كتاب سيبويه من نسخته . ومحمد بن يحيى الرباحى الذى لقى أبا جعفر النحاس وحمل عنه كتاب سيبويه رواية ، فقرىء عليه بعد ايابه ، وأخذ عنه رواية .

وتتابعت الرحلات الى المشرق ، وكان الرحالة ينتشرون في الاقاليم الشرقية وحواضرها ، يسمعون من أعلامها ويجلسون الى حلقات الدرس فيها ، وينتسخون ما يروق لهم أن ينتسخوا ، ويحملون معهم كل ذلك الى الاندلس التى تنتظر عودتهم ليذيعوا في ربوعها ما تعلموه هناك ، وليشدوا غرب البلاد العربية بشرقها .

وتعمر الاندلس بعد حين بأفواج من الدارسين،

فيهم الفقيه وفيهم المحدث ، وفيهم الاديب ، وفيهم اللغوى وفيهم النحوى وفيهم الراوية وفيهم المقرىء ، وتحفل المساجد بحلقات الدرس يتصدرها اولئك الذين قضوا في المشرق أعواما طوالا .

ويتخرج بهم تلاميذهم ممن استهواهم طلب العلم أو استهوتهم الزلفى بتأديب أولاد الامراء ، وتمر الاعوام فتؤتى الدراسة ثمرتها ، ويظهر بين الاندلسيين دارسون لا يقلون شأنا عن نظرائهم في الشرق حفظا واستيعابا ورواية .

ولكن الحوادث المتتابعة وترصد أعدائهم لهم جعل شغلهم الشاغل الدفاع عن حياضهم ، فلم تتح لهم ظروفهم الاستقرار الذى ينصرف بهم الى العلم انصرافا ، ولذلك كانوا في اكثر شئونهم ينظرون الى الشرق نظرة اعجاب ، فيصرفهم اعجابهم الى التشبه بهم الى محاكماتهم ، ولم تعدم الاندلس من نشأ نشأة أندلسية واضحة المعالم بينة الخطوط ، فكان برما بما يحس به من شعور مواطنيه بالضعف أمام نظرائهم أهل المشرق .. وقد سمعنا ابن بسام ينعى على أدباء الاندلس وشعرائهم وكتّابهم رجوعهم الى أخبار اهل المشرق المعتادة « رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب او طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما ، وتلو ذلك كتابا محكما » . وكان ذلك يحز في نفسه

وهو يرى للاندلسيين « محاسن تبهر الالباب وتسحر الشعراء والكتاب » ، ودفعه هذا الشعور الى جميع ما كان يجد من حسنات مواطنيه وتتبع أخبارهم غيرة لافق الاندلس وللاندلسيين .

ورأى ابن رشيق فيما يروى له المقرى في نفح الطيب اقبال الامراء والحكام والخلفاء ، وتوثبهم على النعوت التي يضفيها الشرقيون نظراؤهم على أنفسهم ، فغاظه ذلك وعبّر عن غيظه بقوله :

مما يزهدني في أرض أندلس
تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

واحس لسان الدين بن الخطيب بما احس به ابن بسام وابن رشيق فكان يقول في الموازنة بين الاندلس ومصر : « وما لمصر تفخر بنيلها وألف منه في شنيلها » وهو يشير الى نهر شنيل الذى يمر بغرناطة ، ويعنى أن الشين عند أهل المغرب قيمتها الف في حساب الجمل ، فشنيل يعنى الف نيل .

وقال غيرهم في تفضيل غرناطة على غيرها من حواضر المشرق :

غرناطة ما لها نظير
ما مصر ما الشام ما العراق
ما هى الا العروس تجلى
وتلك من جملة الصداق

كل تلك الاصوات التى ندت من هنا وهناك ، وكل ما قاله هؤلاء وغيرهم يدل على أن الاندلسيين في ميادينهم المختلفة ، وفي مجالى تخصصهم المتباينة كانوا ينظرون الى الشرق نظرة الغريب الى الوطن والى الشرقيين نظرة التلميذ الى الاستاذ . وقد رأينا اقبال الاندلسيين الاولين على الرحلة الى المشرق ، وعلى مصاحبة أعلام المشارقة والاخذ عنهم وحمل كتبهم معهم .

وبعد أن استقر بهم المقام في وطنهم بعد الغربة رجعوا الى ما أخذوه هناك فعقدوا المجالس لاملائه ، وحفلت المساجد بتلاميذ أمناء يرددون على الدارسين ما سمعوه ، ويتجادلون على نحو ما عرفوا هناك من جدال ومناظرة . وكان محمد بن يحيى الرباحى استاذ ابى بكر الزبيدى والنحوى الاول عنده يعقد للمناظرة في كتاب سيبويه مجلسا في كل جمعة . ولم يكن عند مؤدبى العربية ولا عند غيرهم ممن عني بالنحو كبير علم حتى ورد محمد بن يحيى عليهم، وذلك أن المؤدبين انما كانوا يعانون اقامة الصناعة

في تلقين تلاميذهم العوامل وما شـاكلها وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا انفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها » ·

اجتمع للاندلسيين بعد أوبة مواطنيهم مـن رحلاتهم علوم الشرق وكتبهم ، وتلاميـذ تلمذوا للبصريين وتحمسوا لهم كمحمد بن يحيى الرباحي هذا ، وآخرون تلمذوا للكوفيين وتعصبوا لهم كسعيد ابن قدامة البلوطي الذى يعده الزبيدى في الطبقة السادسة من طبقات النحاة الاندلسيين · وكان من الطبيعي وهم لا يزالون في مرحلة التلمذة ، ولا يزالون قريبي عهد بالعلم أن يتعصب فريق لهؤلاء ويتحزب فريق لاولئك ، وان تعقد المناظرات بين الدارسين على غرار ما كان يحدث في المشرق بين بصريين وكوفيين ·

وغبر الناس على هذا زمنا طويلا الى أن نشأ من الاندلسيين من نشأ نشأة اندلسية خالصة لها حظ من الكيان المستقل ، وحظ مـن الشـخصية المتميزة المستقلة ، ونظر فيما خلفه السلف من تراث فاذا هو ذو اتجاهين مختلفين : كوفي وبصرى ، واذا الكوفى يمتاز بخصائص فات البصرى ان يفيد منها ، والبصرى يمتاز بخصائص اخرى كان ينبغى للكوفى ان يعنى بها ، ونظر في أخبار الدارسين الذين سبقوه فاذا بعضـهم يميل الى البصريين ويتعصب لهم ،

وبعضهم الآخر يشايع الكوفيين ويتحمس في الدفاع عنهم ، فراح يحاول ان يقرب بين وجهتي النظـر المختلفتين ويخلط المذهبين ، فنشأ درس يكاد يكون مذهبا جديدا مستقلا لا هو بالكوفى المحض ولا هو بالبصرى المحض ، ولكنه لم يكن ليكون مذهبا جديدا مستقلا كما كان يحلو للقدماء ان يسموه حين يتتبعون آراء ابن مالك في الفيته وابى حيان الغرناطى في ارتشافه ·

ولا اظن بى حاجة الى التأكيد بان النحو في الاندلس هو النحو في المشرق العربى ، وان الجدل الذى كان يدور بين الدارسين في الاندلس كان يدور في مجالس الدرس في البصرة والكوفة وبغداد ، ولم يصل الينا من الاندلس مذهب جديد أو درس جديد لا يتصل بدرس العراقيين بسبب أو صلة ، اللهم الا ما كان من ابن مضاء القرطبي في كتابه « الرد على النحاة » ·

كان احمد بن عبدالرحمن بن مضاء (٥١٣ ــ ٥٩٢هـ) اندلسى المولد والنشأة ، لم تكن له رحلة الى المشرق ولكنه طلب العلم في قرطبة ، فقرأ كتاب سيبويه على عبدالرحمن بن محمد الاشبيلى المعروف بابن الرماك ، وسمع عليه وعلى غيره كثيرا من الكتب النحوية واللغوية والادبية ، ولم يتـرك الاندلس ــ كما يفهم من حديث المترجمين له ــ الا الى فاس حيث ولى قضاءها ·

كان ابن مضاء يضيق بمعاصريه من النحاة ، ويتسابقهم الى التجويد في التعليل على نحو ما كان يجرى بين الدارسين المشارقة ، وكان يغيظه منهم اندفاعهم في التقليد ، وتجاوزهم القدر الكافى حتى ضيعوا في زحمة التعليلات ما كان ينبغى ان يلتزموه من فهم طبيعة اللغة ، فعادت مسالكها – على حد تعبيره – متوعرة ، ومبانيها واهنة ، وانحطت عن رتبة الاقناع حججها حتى قال شاعر فيها :

ترنو بطرف ساحر فاتر
أضعف من حجة نحوى »

واختط لنفسه منهجا جديدا لا يقوم على تعليل ولا ينبنى على قياس ، فطالب النحاة أن يحذفوا من النحو ما يستغنى النحو عنه ، ودعاهم الى الغاء فكرة العامل وحمل على تمسكهم بها والتزامهم اياها ٠

وتصدى له بعض النحاة المعاصرين منهم : أبو الحسن على بن محمد الاندلسى المعروف بابن خروف أحد أئمة العربية في الاندلس (توفى سنة ٦٠٩هـ) فاعرض عنه ٠ ولابد أن يكون قد تصدى له غير ابن خروف لان دعوته كانت ثورة على تقاليدهم ، وهدما لما بنوه ، وهى دعوة جريئة حقا ، تدعو الى الاعجاب بالداعى اليها ، ولكن المرحلة التطورية التى انتهى

اليها الدرس في زمانه ، والتى ندت فيها مثل هذه الدعوة جعل منها صيحة في واد ٠

واذا استطاع ابن مضاء ان يلفت الدارسين الى تفاهة ما في هذه الموسوعات من تعليلات وتأويلات فلم يوفق الى اعادة البناء أو الى رسم خطوط واضحة يقوم عليها النحو الذى يدعو اليه ٠

وقد يحلو لبعض المعجبين بجرأته ان يثار له حين اتهمه بالجور على أساتذته من الكوفيين والسطو على آرائهم التى بنى عليها أو على بعضها دعوته الجريئة ولم ينسبها اليهم ، ولكن لست ممن يجحد لابن مضاء ومضة ذهنة أو يوهن دعوته القوية العامة ، ولكنى آنست من بعض أقواله لمحات رجعت بى الى ما وجدته عند الفراء وغيره من حذاق هذا الدرس ٠

ولم تكن دعوة ابن مضاء ، وهو من رجال المائة السادسة او ممن ختمت به المائة السادسة بجديدة ، فقد ندت قبله صيحات كانت تهزأ بهذا اللغو الذى جمعه النحاة المناطقة فسموه نحوا ، وقد كان غلو النحاة بفكرة العامل قديما ، واصرارهم على مزج كلامهم بالمنطق يمتد الى القرن الثالث ، وشهد القرن الرابع خاصة نحاة غلوا في ذلك غلوا كبيرا ٠

ولم يكن كتاب « الرد على النحاة » في واقعه

خطة لدرس جديد ، ولكنه طائفة من آراء متفرقة أراد صاحبها أن يهدم بها بناء تعاونت القرون على اقامته دون أن يقدم للدرس خطة جديدة ينبني عليها نحو جديد ٠

نحـاة مصريون

أرأيت البحيرة وقد تلاقت عنـدها الروافد والانهار تصب فيها الماء مصدر الحيـاة والنعمة ، وتستريح عندها من عناء الطريق الطويلة ؟ ثم أرأيت هذه البحيرة تحفل بهذا الخير العميم لتغمر المناطق الظمأى ، وتبعث الحياة فيها بالخصب ؟

كانت البصرة قبل اثني عشر قرنا كذلك ، كانت تستقبل التيارات الثقافية الوافدة اليها من الشرق والغرب ، وتتفاعل هذه التيارات فيها وتنفخ فيما استقر فيها من روحها فيتبصر فيها كل شيء ، ويحمل عنها الوافدون اليها من الامصار ما توافر فيها من خصب الى أمصارهم التي ترنو نحو البصرة، الى حيث يقفل التجار الذين لا يرجعون من هذه الرحلة بالبضائع والسلع ، ولكنهم يؤوبون بالعلم واقتباس المعرفة ، لترى النور يطلع عليها من البصرة، وهي يومئذ مشرق الدنيا ، ومتجه الانظار ، وموطن الخليل ٠

وكانت الكوفة قد تلمذت للبصرة ، وأخذت عنها ، وقلدتها في كل شيء ، ثم رجعت الكوفة لنفسها فاذا فيها دلائل الشخصية المتميزة ، ومخايل الاستقلال ، وسارت بازاء البصرة ولكن في خطين متوازيين ·

وكانت البصرة والكوفة في القرن الثاني تمدان بغداد بالعلم والعلماء وبالشعر والشعراء ، وبكل ما تحتاج اليه مدينة كبيرة من مصادر المعرفة وأسباب الحضارة ·

كانتا تمدان الاقاليم الاخرى بكل ما حفلتا به من جديد في المعرفة ، كما كانتا تمدانها بالجيوش التي تحمل معها النور والهداية تحيل بهما المجاهل الى معالم والظلمة الى نور · وكانت الاقاليم تبعث بابنائها اليهما ليرجعوا اليها روادا للمعرفة في شعوبها المتطلعة الى حياة أفضل ، تشرق بالدين والعلم والحرية ·

ولم يكن في الامصار الاخرى حتى مستهل القرن الخامس ما يمكن أن ينسب اليها أو يعبر عن شخصيتها ، وانما هي ــ كما كان ابن عباد يقول ــ بضاعتنا ردت الينا · فالقرن الثاني والقرن الثالث والقرن الرابع ــ فيما يبدو ــ كانت فترة تقليد لا معدى عنها لوضوح الشخصية وبدو خطوطها

واستقرارها من بعد · وكان ذلك مصدر الاحساس بالالم يحز في نفس ابن بسام (المتوفى سنة ٥٤٣هـ) ويدفعه الى أن يقول : « الا ان أهل هذا الافق ــ يعني الاندلس ــ أبوا الا متابعة أهل المشرق ، يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما ، وتلو ذلك كتابا محكما » ·

ولا بأس على الاندلس فيما أرى ولا على غيرها من الاقطار الاسلامية أن تقف موقف المقلد في ابان نهضتها الثقافية ، أو ترجع الى المشرق تقتبس منه مادة حضارتها الاسلامية العربية الاولى ، فعهدها بالاستقرار حديث أو شعورها بالاستقلال واكتمال الشخصية لم يكن الا في عهد متاخر ، ولعل هذا انما يتمثل في هذا الشعور الذى يهيب بأهل الاندلس أن يقبلوا على انفسهم ، ويعتزوا بهذه الشخصية التى طفقت ترسم خطوطها ، ويصورة كلام ابن بسام الاندلسى احد كتاب القرن السادس للهجرة ·

ظهرت الدراسة اللغوية في البصرة والكوفة ثم في بغداد قبل ان يظهر لها شأن في الامصار الاسلامية الاخرى ، وانما كانت هذه الامصار تتلمذ لها وتأخذ عنها ، ويقطع أبناؤها المسافات الطوال ، ويجتازون هذه الحواجز الكبرى من صحارى وبحار ليأخذوا

عن النابهين فيها ممن وصلت شهرتهم العلمية الى تلك الديار القريبة والنائية .

كان الاندلسى يتهيا لحج بيت الله الحرام ، فاذا انقضت أيام الحج عرج على العراق ، على البصرة أو الكوفة أو بغداد ، يقيم في احداها مدة تقصر أو تطول ، يسمع فيها من هذا ، وياخذ عن ذاك ، وربما تنقل بين هذه القواعد الاسلامية ، يلتقى فيها بأعلامها وأئمتها ، ثم يرجع الى بلده ليبشر بالنهضة العلمية التى حفلت بها هذه الامصار .

ويرتحل المصرى لمثل ذلك ، ويسمع ممن يلتقى بهم في موسم الحج والندوات التى يعقدها الحجاج الوافدون على مكة من كل فج ، يسمرون فيها ، ويستعرضون مشاهد امصارهم ، ويقصون على المستمعين اليهم قصص الادباء والشعراء واللغويين واخبارهم ونوادرهم ويقف الحديث طويلا عند البصرة وشيوخها ، ويسمع الناس بالخليل وسيبويه ، وبالاصمعي وأبى عبيدة ، وبالفرزدق وجرير ، وبالعجاج ورؤبة وغيرهم ، فيشعر المصريون وغيرهم بالرغبة تحدوهم الى مشاهدة البصرة والمكث فيها ، والجلوس الى مجالس الدرس في مساجدها ، ثم يرجعون من البصرة بعد زمان يقصر أو يطول ، ليشاركوا في بناء الاسس العلمية في ديارهم سالكين منهج الشيوخ الذين تلمذوا لهم هناك .

ولم يكن في مصر اذ ذاك شيء مما كان يجده المصريون الوافدون على العراق وظلت مصر تتلمذ للعراق زمانا طويلا قبل أن تتكون شخصيتها العلمية ، ولم تشهد مصر حتى القرن الخامس من اللغويين والنحويين من يقوم مقام الخليل أو سيبويه في البصرة أو مقام تلاميذهما ، أو يقوم مقام الفراء وثعلب في الكوفة وبغداد أو مقام تلاميذهما ، فكان المصريون سواء أكانوا مصريين صلبة أو مقيمين في مصر ـ تلاميذ لاولئك الاعلام ، لازموهم وأخذوا عنهم كثيرا ، ثم رجعوا الى مصر ليبشروا بمذهب البصرة أو بمذهب الكوفة ، ولينشروا فيها علم الخليل وكتاب سيبويه او أمالي الفراء وكتبه .

كان ولاد المصادري (وهو الوليد بن محمد التميمى المصادرى) يأخذ النحو عن رجل من أهل المدينة ، فلما سمع بالخليل رحل الى البصرة ولقيه ولازمه ثم رجع الى مصر .

وكان ابنه أبو الحسن محمد بن الوليد قد رحل الى العراق ، واقام فيه ثمانية أعوام لقى فيها ثعلبا والمبرد ، وكان شديد الحرص على أن يحوز نسخة من كتاب سيبويه ، وكان المعنى به اذ ذاك هو المبرد ، ولكن المبرد كان يضن على طلابه بالنسخة التى عنده ، فتحيل أبو الحسن على انتساخ الكتاب بالرغم من حرص المبرد على الا تتسرب النسخة الى

غيره ، واذا بأبى الحسن يحمل معه الى مصر نسخة من أصل أبى العباس المبرد كان أبو الحسن قد تواطأ مع ابن المبرد على انتساخها نظير جعل أغراه به ، وطار صواب أبى العباس المبرد فسعى به الى بعض خدمة السلطان ، ولم ينقذه الا صاحب الخراج ببغداد . وحمل صاحب الخراج هذا أبا العباس المبرد على أن يقابل أبو الحسن الكتاب عليه قراءة ، وما يزال به حتى اجاب طلبه ، ثم رجع الى مصر ، واقرأ تلاميذه هذه النسخة التى كانت النسخة الاولى لكتاب سيبويه في مصر ٠

وكان من تلاميذه ابنه أبو العباس أحمد بن محمد ، وكان سماعه بقصة انتساخ الكتاب قد حفزه الى الخروج الى بغداد ليلقى فيها أبا اسحاق الزجاج تلميذ ثعلب والمبرد ، وليدنيه الزجاج منه اعجابا بحذقه ، وكان الزجاج لا يزال يفضل أبا العباس ويقدمه على تلاميذه ٠

ويرجع أبو العباس المصادرى الى مصر بعد أن وقف على شؤون الدرس في بغداد ، والم بالدرس البصرى والكوفى بلقيه ابا اسحاق الزجاج الذى تلمذ للكوفيين والبصريين جميعا ٠

ويخلف أبا العباس اخوه أبو القاسم في اقراء كتاب سيبويه ، ولكنه ـ كما يقول الزبيدى ـ كان دون أخيه في العلم ٠

ويبدو ان آل المصادرى قاموا بالمجهود الاول لايجاد نهضة علمية في مصر بعد استقرارها السياسى، واستعراب أهلها بهجرة العرب اليها ، واستمرار الحكم العربى في ربوعها ٠

وابو على أحمد بن جعفر الدنيورى (توفى سنة ٢٨٩هـ) قدم الى مصر ، ثم دفعه الى الذهاب الى البصرة ما دفع غيره من طلاب العلم ، وكان ابو عثمان المازنى رأس القوم يومئذ ، فلقيه ، وحمل عنه كتاب سيبويه ورحل الى بغداد ليأخذ عن ثعلب علم الفراء ٠ ويكرم وفادته ، ويتعهده بتحقيق ما كان يصبو اليه ، فيملى عليه علم الفراء في النحو وأماليه في معاني القرآن ، وتقوى الصلة بين الاستاذ وتلميذه ، فينزله بيته ، ويزوجه من ابنته ، ويتوسم فيه أن يكون قواما على الدرس الكوفي في مصر ٠

ولكن طارئا جديدا يطرأ على مجالس الدرس في بغداد ، فيذهب بهذا الامل من نفس ثعلب ، ويفرق عنه أصحابه الذين وضع ثقته فيهم ، وبنى بهم الآمال العراض ذلك هو وصول أبى العباس المبرد الى بغداد ، واذاعته منهج الدرس البصرى الذى فتن الدارسين وخدعهم ببريقه ٠

ويشهد الناس ختن ثعلب يخرج من منزل ثعلب ، « ومعه محبرته ودفتره فيقرأ كتاب سيبويه

على المبرد ، فكان يعاتبه أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك ، ويقول له : اذا رآك الناس تمضى الى هذا الرجل وتقرأ عليه يقولون ماذا ؟ فلم يكن يلتفت الى قوله » .

وحاول أبو على بعد قدومه مصر أن يوفق بين الدرس الكوفى والدرس البصرى ، ولكنه عدل عن ذلك وترك مسائل الخلاف ، وأقبـــل على الدرس البصرى يذيعه في الدارسين المصريين باقرائهم كتاب سيبويه .

فالدرس البصـــرى بأبى على الدنيـورى ، وبأولئك الشيوخ من آل المصادرى كان قد وجد اقبالا من الدارسين ، وترويجا لاصوله ، وتوطيدا لدعائمه ، ومصر في عهد هؤلاء كانت لا تزال تعتمد على البصرة ، وعلى كتب البصريين .

ولم يكن في هؤلاء الدارسين المصريين الذين رجعوا الى مصر من الاصالة ما يدفع الكاتب أو المؤرخ الى الظن بوجود مدرسة نحوية مصرية لها اصولها ولها قواعدها ولها منهجها الذى يميزها عن المدارس النحوية التى ظهرت في البصرة والكوفة وبغداد ، فلم يكن لهؤلاء كتب تعبر عن شخصية مصر العلمية اذ ذاك ، أو آراء منقولة عنهم تنحرف عن الخط الذى رسمه لهم منهج الدرس البصرى .

كان عملهم هو اطلاع المصريين على ما كان في البصرة والكوفة وبغداد من ثقافات وتلقينهم آراء البصريين ، وبعض آراء الكوفيين .

وغبر الدارسون المصريون يقرؤون ويقرئون هذه المنقولات ، ولا يزيدون فيها شيئا ، الا شروحا لا جدوى للدرس اللغوى فيها ، أو مختصرات يستعين المبتدئون بها على استيعاب اصول هذا الدرس ، وظلوا يعيشون على هذا التراث المنقول زمنا طويلا قبل أن تتميز أعمالهم ، وترتسم فيها الخطوط الاولى لشخصيتهم العلمية ، وقبل أن تشهد مجالس الدرس في مصر حلقة جمال‌الدين ابن هشام .

وابن هشام هو أبو محمد عبدالله جمال‌الدين ابن يوسف ... ابن هشام ، مصرى بالولادة والنشأة والدراسة لا بالوفادة كمن مر بنا ذكرهم من نحاة مصر الاولين . عاصر التاج التبريزى والتاج‌الفاكهاني وابن السراج واخذ عنهم ، وسمع ديوان زهير بن أبى سلمى على أبى حيان ، وقد تخرج به جماعة من الدارسين المصريين وله من الكتاب : أوضح المسالك الى الفية ابن مالك ، وشذور الذهب ، وقطر الندى ، وشرح قصيدة كعب بن زهير : بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ، وعـدة مؤلفـات في اللغـة والنحـو والادب .

قال ابن خلدون في مقدمته : « وصل الينا بالمغرب لهذه العصور ديوان منسوب الى جمال الدين ابن هشام من علمائها ، استوفى فيه أحكام الاعراب مجملة ومفصلة ، وتكلم على الحروف والمفـردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في اكثر أبوابها ، وسماه بالمغنى في الاعراب ، واشار الى نكت اعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها ، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ، ووفور بضاعته منها » ·

واننا لنحمد حقا له التفاته الى اهمية الحروف في تاليف الكلام ونظمه ، ودراسة الادوات الكلامية ، فهو مما يتطلبه المنهج النحوى الذى كان ينبغى أن يسيطر على الدراسة النحوية ، ولكننا ناخذ عليه هذا الخلط العجيب ، ولو كان من المحدثين لطالبناه بتعديل منهجه ، واعادة النظر في تصنيف هــــذه الادوات ووضع النظير الى جانب النظير ، وعزل كل طائفة منها تشترك في معناها وفي وظيفتها اللغوية ، لوضعها في مكان يخصص له على حدة · اما وضع الهمزة التى هى في الاصل للاستفهام الى جانب (أيا) التى هى للنداء ، والى جانب (ان) التى هى للشرط ، في باب واحد ، ووضع (لم ، ولما) اللتين هما للنفى الى جانب (لو) التى هى للشرط في باب واحد ،

ووضع الباء المفردة الى جانب (بل) ، و (بلى) في باب واحد ، اما وضع هذا الى جانب ذاك فهذا اذا كان له مدلول فهو هذا الخلط العجيب لاشتات لم تجمع في باب واحد الا لتشابه أوائلها في اللفظ ·

ومهما يكن مـــن شيء فعمله في كتابه هذا « مغنى اللبيب » خطوة جديدة ، والتفاتة محمودة اذا وزنت بميزان ذلك العصر ، وقيست بمقياس تلك الظروف ·

المحتويات

صدر من الموسوعة الصغيرة

١ ـ العرب والحضارة الاوربية ، د. فيصل السامر .
٢ ـ فلسفة الفيزياء ، د. محمد عبداللطيف مطلب .
٣ ـ الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي الاشتراكي عزيز السيد جاسم .
٤ ـ قضايا المسرح المعاصر ، سامي خشبة .
٥ ـ الصناعات البتروكيمياوية ومستقبل النفط العربي . محمد ازهر السماك .
٦ ـ الثورة والديمقراطية ، صباح سلمان .
٧ ـ دانتي ومصادره العربية والاسلامية ، عبدالمطلب صالح.
٨ ـ الطب عند العرب ، د. عبداللطيف البدري .
٩ ـ انغولا .. الثورة وابعادها الافريقية ، حلمي شعراوي .
١٠ـ معالجات تخطيطية لظاهرة التحول الحضري ، د. حيدر كمونـة .
١١ـ مصادر الطاقة ، د. سلمان رشيد سلمان .
١٢ـ التراث كمصدر في نظرية المعرفة وابداع في الشعر العربي الحديث ، طراد الكبيسي .
١٣ـ التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية ، د. نوري جعفر .
١٤ـ الثقافة والتنظيمات الشعبية ، عبدالغني عبدالغفور .
١٥ ـ العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي ، د. كاظم حبيب
١٦ـ فن كتابة الاقصوصة ترجمة : كاظم سعدالدين .
١٧ـ الاعلام والاعلام المضاد ، صاحب حسين .
١٨ـ استثمار المواد الكيمياوية والعضوية الملوثة للبيئة، طارق شكر محمود .
١٩ـ مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، د. هاشم الطعان .





رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٣١٦ لسـنة ١٩٨٠

دار الحرية للطباعة ــ بغداد ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م